# مُقَدِّمَةٌ لِمَشْرُوعٍ نَهْضَوِيٍّ

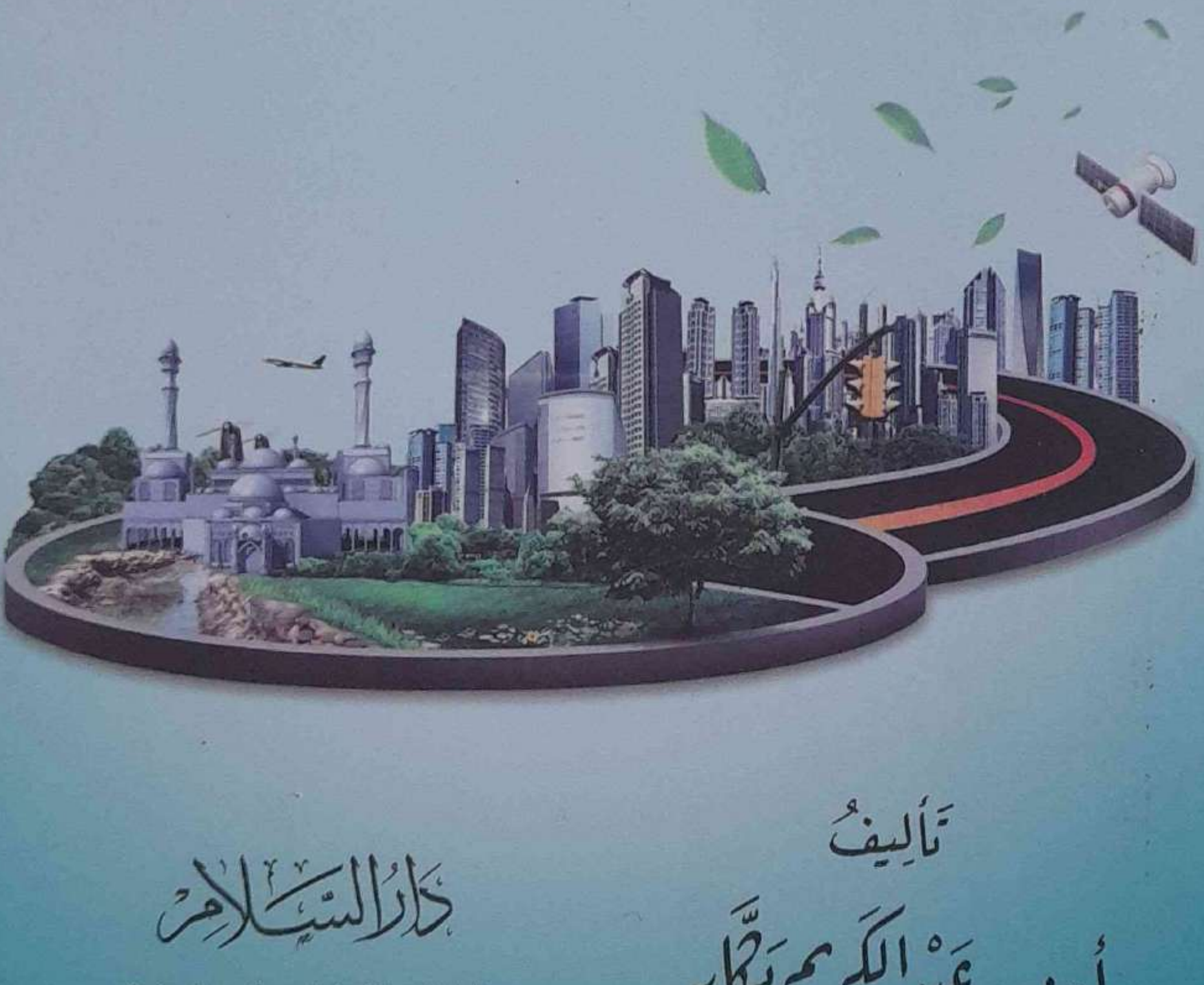

تأليفُ

**أ. د. عَبْدُ الكَرِيم بَكَّار**

دار السَّلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

# مقدمة لمشروع نهضوي

تأليف

أ. د. عبد الكريم بكار

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

**كافة حقوق الطبع والنشر والترجمة محفوظة**
للناشر
دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
لصاحبها
عبد القادر محمود البكار

**الطبعة الأولى**
**لدار السلام**
١٤٣٥هـ / ٢٠١٤م

بكار ، عبد الكريم.
مقدمة لمشروع نهضوي / تأليف عبد الكريم بكار . -
ط ١ - القاهرة : دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع
والترجمة ، ٢٠١٤م .
١٥٢ ص ؛ ٢٤ سم .
تدمك ٨ ١٧٤ ٧١٧ ٩٧٧ ٩٧٨
١ - الإصلاح الاجتماعي - مصر .
٢ - الإصلاح الاقتصادي .
أ - العنوان .
٣١ ,٢٤٢

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار
الكتب والوثائق القومية - إدارة الشؤون الفنية

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
ش.م.م

تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت
على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة
أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ،
٢٠٠١م هي عشر الجائزة تتويجا لعقد
ثالث مضى في صناعة النشر

**جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية**
**الإدارة** : القاهرة : ٤٠ شارع أحمد أبو العلا - المتفرع من شارع نور الدين بهجت -
الموازي لامتداد شارع مكرم عبيد - مدينة نصر
هاتف : ٢٢٨٧٣٢٤٦ - ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ ( ٢٠٢ + )
فاكس : ٢٢٧٤١٧٥٠ ( ٢٠٢ + )
**المكتبة : فرع الأزهر** : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٢٥٩٣٢٨٢٠ ( ٢٠٢ + )
**المكتبة : فرع مدينة نصر** : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع
مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٢٤٠٥٤٦٤٢ ( ٢٠٢ + )
فاكس : ٢٢٦٣٩٨٦١ ( ٢٠٢ + )
**المكتبة : فرع الإسكندرية** : ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين
هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ ( ٢٠٣ + )
**بريديًا** : القاهرة : ص.ب ١٦١ الغورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩
**البريد الإلكتروني** : info@dar-alsalam.com
**موقعنا على الإنترنت** : www.dar-alsalam.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

# فِهْرِسُ الْمُحْتَوَيَاتِ

**تمهيد** ........ ٩
١ - الاستمرار في التغيير ........ ١٠
٢ - التحديات نعمة ........ ١١
٣ - مشكلات داخلية ........ ١١
٤ - ثقافة التساؤل ........ ١٢
٥ - الغموض يكتنف نتائج كل جهد نهضوي ........ ١٢
٦ - المشي على حبل مشدود ........ ١٣
٧ - لكل بلد خطته النهضوية الخاصة ........ ١٤
٨ - مصطلحات ذات صلة ........ ١٦
٩ - مؤشرات إيجابية ........ ١٧
١٠ - الكتابة عوضًا عن التداول الشفوي ........ ١٨
*** الفكر النهضوي** ........ ٢١
١ - رؤية معقدة ........ ٢٢
٢ - ليس لدى أحد حلول مثالية ........ ٢٢
٣ - لا رؤية موضوعية للواقع ........ ٢٣
٤ - حل المشكلات الجديدة يحتاج إلى فكر جديد ........ ٢٥
٥ - مقاومة النزعة الماضوية ........ ٢٧
٦ - الإصلاح لا يكون بالفوقية ........ ٢٨
٧ - نهوض لتلبية الاحتياجات الروحية ........ ٢٩
٨ - لا للواحدية السببية ........ ٣٠
٩ - النقد التاريخي ........ ٣٣

١٠ - اختلاف من غير اقتتال ........ ٣٤
١١ - المبادرات المتعددة ........ ٣٦
مكافحة التدخين نموذجًا ........ ٣٦
١٢ - تمكين الشباب ........ ٣٨
*** متطلبات عامة** ........ ٤١
١ - نظرة إلى الوراء ........ ٤١
٢ - واقع ثري معقد وغير مستقر ........ ٤٢
٣ - القليل من الكلام مع الكثير من العمل ........ ٤٣
٤ - الأساس الأخلاقي ........ ٤٤
٥ - الموازنة بين الواقع المحلي والواقع العالمي ........ ٤٤
٦ - البيئة الذهبية ........ ٤٥
*** نهضة مجتمع** ........ ٤٧
مواجهة مخاطر التحديث ........ ٤٨
المجتمع المستهدف ........ ٥٠
١ - مجتمع ملتزم ........ ٥٠
٢ - مجتمع مزدهر ........ ٥٠
٣ - مجتمع متماسك ........ ٥١
٤ - مجتمع متكافل ........ ٥١
الريادة الاجتماعية ........ ٥٢
توسيع الطبقة الوسطى ........ ٥٤
إنعاش مفهوم المواطنة ........ ٥٥
مأسسة المجتمع ........ ٥٦
العمل في مجموعات صغيرة ........ ٥٨
الضبط الاجتماعي ........ ٥٩

١ - التحكم اللطيف ............ ٥٩
٢ - في وجه العاصفة ............ ٦٠
٣ - التجديد المبصر ............ ٦١
*** تعليم وتربية أفضل** ............ ٦٣
رجل كل العصور ............ ٦٣
١ - الترحيب بالخبرات الجديدة ............ ٦٣
٢ - العقل المنفتح المستقل ............ ٦٤
٣ - الإيمان العميق ............ ٦٤
٤ - الانضباط الذاتي ............ ٦٥
٥ - الحفاظ على الوقت ............ ٦٥
٦ - التخطيط للارتقاء ............ ٦٦
٧ - الإيمان بإمكانية التقدم ............ ٦٨
٨ - التعلم في مكان جيد ............ ٦٨
٩ - المشاركة الإيجابية ............ ٦٩
تعليم أفضل ............ ٧٠
١ - إعداد الإنسان العالمي ............ ٧١
٢ - المهم هو المخرجات ............ ٧١
٣ - استمرار الدعم الحكومي ............ ٧٢
٤ - عناية أكبر من الأسر ............ ٧٢
٥ - اهتمام أكبر بالمعلم ............ ٧٣
٦ - من أجل الفقير ............ ٧٥
٧ - التعليم الأهلي ............ ٧٧
التربية المنتجة ............ ٧٨
لماذا نربي؟ ............ ٧٩

أسس النجاح التربوي ........ ٨٠
أ - ثقافة تربوية جيدة ........ ٨٠
ب - بيئة تربوية ملائمة ........ ٨٠
ج - فهم متطلبات المستقبل ........ ٨١
الهوية الأخلاقية ........ ٨٢
أ - المعرفة الخلقية ........ ٨٢
ب - المشاعر والميول الأخلاقية ........ ٨٢
ج - السلوك الأخلاقي ........ ٨٣
الفاعلية والإبداع ........ ٨٣
التربية على الإبداع ........ ٨٤
*** الاقتصاد المزدهر** ........ ٨٧
ما الازدهار الاقتصادي؟ ........ ٨٨
قيم تساعد على الازدهار ........ ٨٨
كبح جماح الاستهلاك ........ ٩٠
أخلاقيات عمل جديدة ........ ٩٣
مكافحة الفقر ........ ٩٦
أساليب وأدوات في مكافحة الفقر ........ ٩٧
وسط استثماري جاذب ........ ١٠٠
- ملامح الوسط الجاذب ........ ١٠١
اقتصاد يقوم على المعرفة ........ ١٠٢
ما المقصود باقتصاد المعرفة؟ ........ ١٠٣
أهمية اقتصاد المعرفة ........ ١٠٣
ركائز الاقتصاد المعرفي ........ ١٠٤
١ - تعليم متقدم وحديث ........ ١٠٤

٢ - تشجيع الابتكار ........ ١٠٤
٣ - توفير ظروف مساعدة ........ ١٠٤
٤ - إيجاد تشريعات ملزمة ........ ١٠٥
التنمية المستدامة ........ ١٠٥
١ - خفض الاستهلاك ........ ١٠٦
٢ - القضاء على الأمية ........ ١٠٦
٣ - العدل بين الأجيال ........ ١٠٦
٤ - التركيز على الطاقة المتجددة ........ ١٠٧
٥ - الاعتماد على المنتج المحلي ........ ١٠٧
٦ - مارس حريتك وادفع الثمن ........ ١٠٨
٧ - تشجيع المشروعات الصغيرة ........ ١٠٨
عقبات وتحديات ........ ١٠٩
كيف ندعم المشروعات الصغيرة؟ ........ ١١٠
- تحجيم الفساد ........ ١١١
ما الفساد؟ ........ ١١١
ما أسباب الفساد؟ ........ ١١١
مخاطر انتشار الفساد ........ ١١٢
كيف نحجم الفساد؟ ........ ١١٢
*** التقدم السياسي** ........ ١١٥
١ - الانقطاع الحضاري ........ ١١٥
٢ - حكمة التشريع ........ ١١٥
٣ - لا لتضخم الحكومة ........ ١١٦
٤ - تغيير ما في النفوس والعقول ........ ١١٧
٥ - البداية المشجعة ........ ١١٨

٦ - الدولة وتغيير المجتمع ١١٩
٧ - الشرعية الهشة ١٢٠
٨ - صلاح النظم هو الأهم ١٢١
٩ - مواطنون في درجة واحدة ١٢٢
١٠ - المزيد من المساءلة ١٢٣
١١ - مركزية أقل ١٢٥
١٢ - السياسة ورحابة الاجتهاد ١٢٦
**خاتمة** ١٢٩
**ثبت الأفكار والمقولات العامة** ١٣١
**مراجع مختارة** ١٤٣
**السيرة الذاتية للمؤلف** ١٤٥
**من إصدارات دار السلام** ١٤٨

* * *

# تَمْهِيد

**الحمد للّه رب العالمين حمد الشاكرين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:**

فإن اللّه تعالى فطر الناس على التشوق إلى تحسين أوضاعهم الخاصة من خلال الحصول على المزيد من المنافع ودفع المزيد من الأضرار والمنكِّدات. وهذا التشوق مصاحب لبني آدم في كل زمان ومكان، وبعد تقدم الوعي البشري صار صلاح النظم والبيئات جزءًا مما يتطلع إليه الناس، وصار الخلاص من النظم الفاسدة والبيئات الصعبة والمرهِقة أحد هموم الناس عامة والمفكرين والمثقفين خاصة.

إن الإسلام منح المسلمين وعيًا مبكرًا بمسألة الإصلاح والسعي إلى تشجيع الخير ومقاومة الشر من خلال مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن خلال أفكار وقيم الطاعة والمعصية والثواب والعقاب ومجاهدة النفس والإحسان إلى الخلق...

ولهذا فإن الإسلام استطاع إنشاء حضارة متكاملة خلال قرن، وقد استوت على سوقها خلال أربعة قرون، وفي القرن الخامس الهجري بدأ الركود والجمود حيث تلاشت حركة التقدم، واستمر ذلك نحوًا من ثلاثة قرون، وفي القرن الثامن انبثق وعي إسلامي جديد بأهمية إصلاح النظم ومقاومة التحلل والخراب، وذلك من خلال العمل العظيم الذي قام به ابن خلدون في مقدمته الشهيرة. صحيح أن التوصيف والتعليل كانا هما الغالبين على ( المقدمة ) وصحيح أن رؤيته لاستئناف مسيرة الحضارة كانت غائمة أو غائبة، إلا أن من الصحيح أيضًا أن ابن خلدون وضع أصبعه على كثير من الأسباب التي أدت إلى جمود الحضارة الإسلامية وتقهقرها، وإن مجرد التحدث عن ذلك يعدّ شيئًا ثوريًّا في زمان الاضطراب والضياع الفكري والثقافي.

إذا كانت الشكوى من سوء الأحوال ظلت تتردد على ألسنة صالحي هذه الأمة دون انقطاع، فإن التفكير فيما ينبغي القيام به على وجه التحديد من أجل التقدم ظل شبه غائب إلى أن وقعت أعظم واقعة في تاريخ المسلمين، أعني استعمار الغرب

لديار الإسلام؛ حيث اكتشف المسلمون عالمًا جديدًا بكل ما تعنيه الكلمة، واكتشفوا حجم الهوة التي تفصلهم عن أوروبا على كل الصعد والمستويات، وقد شكلت حملة ( نابليون ) على مصر عام ( ١٧٩٨م ) صدمةً كبيرة لمثقفي المصريين وعامتهم على حد سواء، وقد كان للتقدم العلمي والتقني الذي لمسه المصريون والمسلمون عامَّة التأثيرُ الأكبر في إثارة مشاعر العوز والتخلف عن ركب الحضارة.

ومن ذلك اليوم وإلى يوم الناس هذا والمهتمون بشؤون النهضة والحضارة مشغولون بتحديد ما ينبغي اقتباسه من الغرب وحضارته، وما ينبغي رفضه أو تجاهله، وإن كنت أعتقد أن أسلوب العيش في الغرب يكسب كل يوم أرضًا جديدة في أنحاء المعمورة، مع أننا نشهد صحوة إسلامية متنامية وربيعًا عربيًّا واعدًا، وقد تم إنجاز شيء آخر فعلًا، هو اليقين بأن من العسير إصلاح الأخلاق والتقدم على صعيد التدين من غير حدوث تقدم حقيقي في شؤون الدنيا على صعيد السياسة والاقتصاد والتعليم والتقنية والتصنيع...

ولعلي في هذا التمهيد أركِّز الضوء على بعض المفاهيم التي أعدها مفاتيح مهمة في مسألة المشروع الحضاري، وذلك عبر المفردات العشر التالية:

### ١ - الاستمرار في التغيير:

الكون يتسع، والنظم والإمكانات والفرص والتحديات أيضًا تتسع؛ ولهذا فإننا في حاجة إلى أن نوجد بيئة فكرية ونظمية توحي للناس بأن التغيير عملية مستمرة لا تتوقف، والبديل عن التغيير هو الجمود، والذي لا يؤدي إلا إلى التفسخ والاضمحلال. توسع الحياة يعني المزيد من التفاصيل في كل شيء، وهذا يحوِّل معظم ما هو موروث وقديم إلى مبادئ وأفكار عامة، يمكن الاستناد إليها على نحو رمزي، لكن جدواها في تنظيم الحياة الحاضرة وتطويرها، يزداد انحسارًا وضعفًا، وقد تم التعبير عن هذا المعنى بقاعدة جليلة تقول: ( لا تتسع مرحلة سابقة لمرحلة لاحقة ).

بعض الناس يقولون عند طرح أي أسلوب إصلاحي:

علينا العودة إلى الكتاب والسنة. نعم علينا أن نؤطر حركتنا النهضوية بمبادئ الإسلام وقطعيات الكتاب والسنة، وهذا مما لا ينبغي الاختلاف فيه، لكن تحقيق التقدم اليوم يحتاج إلى سياسات وآليات مفصلة لمعالجة قضايا مثل غسيل الأموال

والبطالة والفساد الإداري والتضخم والتهرب الضريبي والتصحر وتلوث الهواء، وما شاكل ذلك، إلى جانب إيجاد نظم تحفز على الاستثمار والادخار وتحقيق العدالة والإنجاز والجودة الشاملة والحكم الرشيد.. إن كل هذا يحتاج إلى اجتهاد وتدريب وبحث علمي وتعلم من تجارب الأمم المتقدمة.

### ٢ - التحديات نعمة:

التحديات والصعوبات والإخفاقات هي نصف الحكاية، والشطر الأول من الرواية، أما الشطر الثاني فيتمثل في ردنا عليها وتعاملنا معها. إن هذه الدنيا دار ابتلاء، وإن الإنسان يتقدم من خلال الشدائد بما تحمله عليه من إبداع وتفكير وتجريب؛ ولهذا فإن الاكتفاء بتوصيف الصعوبات والعقبات يعني أننا لم نقم بما علينا القيام به. النهضة عبارة عن كتاب كبير، وإن على كل مواطن أن يحاول كتابة صفحة من صفحات ذلك الكتاب أو سطر من سطوره، وإن خاتمة ذلك الكتاب لن تكتب إلا عند اختتام وجود الإنسان على هذه الأرض، هذا ما علينا إدراكه وتوضيحه للناس كافة.

### ٣ - مشكلاتنا داخلية:

حين دخلت الحضارة الإسلامية في مرحلة الجمود والارتباك، كان المسلمون هم الأمة الأقوى، وكانت علومهم هي الأوسع والأفضل، وحين صرنا الجزء الأضعف في العالم صار من الطبيعي أن تصبح بلادنا أماكن لنفوذ الأجنبي، وهذا يعني أن علينا أن نعي حقيقة راسخة، هي أن ضعفنا هو سبب تسلط الآخرين علينا، وليس تسلط الآخرين علينا هو سبب ضعفنا. أنا لا أنكر أننا نعاني من تدخل الأعداء لكنَّ تدخلهم ليس هو السبب الجوهري لمعاناتنا. اللَّه ﷻ وضَّح لنا هذا على نحو لا لبس فيه حين قال: ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ ﴾ [ آل عمران: ١٦٥ ]. وحين قال: ﴿ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔا ﴾ [ آل عمران: ١٢٠ ].

إن كثيرًا من أهل الغيرة يستهلكون الكثير من الطاقات والأوقات في الشكوى من نفوذ الغرب ونهبه لخيرات المسلمين، وتلك الشكوى مشروعة لكنها لن تجدي نفعًا، ولن تأتي بأي ثمرة، مشكلتنا داخلية، وحلها يجب أن يكون داخليًا، وحين نقوى وننجح فإن نفوذ الآخرين يتقلص على نحو آلي، تمامًا كما يتقلص أذى الميكروبات والجراثيم حين ترتفع درجة المناعة في أجسامنا.

### ٤ - ثقافة التساؤل:

حين يهيمن التخلف يتراجع التساؤل وتكثر الأجوبة الجاهزة التي لم تُبنَ على علم أو فهم؛ ولهذا فإن علينا استخدام المزيد من الأسئلة حول تشخيص المشكلات التي نعاني منها وحول الحلول المرتجاة لها، وقد كان أحد المفكرين يسمي أدوات الاستفهام ( جنود الفهم ). وعلى سبيل المثال فإننا إذا أردنا فهم ظاهرة مثل ( ضعف الإقبال على القراءة واقتناء الكتاب ) فإنه يمكننا طرح الأسئلة التالية:

- ما المقصود بضعف القراءة؟
- هل الإعراض لدينا يشكل ظاهرة، وما نسبة المعرضين عن القراءة؟
- هل هذه الوضعية محلية أو إقليمية أو عالمية؟
- هل هذه الظاهرة قديمة أو حديثة، وهل يمكن الحديث عن بداية لها؟
- ما الجهات المتسببة في وجود هذه الظاهرة؟
- هل يشعر المجتمع بالخسارة بسبب ضعف إقباله على الكتاب؟
- من الذين في إمكانهم تخليص المجتمع من هذه الوضعية ؟ وهل هناك مدة زمنية لذلك؟
- ما التكاليف المالية لذلك، ومن الذي سيدفعها؟
- هل هناك مؤسسات دولية في وسعها تقديم المساعدة لنا؟
- من أين تكون البداية؟
- هل هناك تجارب عالمية ناجحة في هذا يمكن الاستفادة منها؟

نحن نحتاج إلى أن نلقي هذه الأسئلة، ونحاول الإجابة عليها بالكثير من الإخلاص والصدق مع استخدام البحث المنهجي من أجل الحصول على إجابات جيدة.

### ٥ - الغموض يكتنف نتائج كل جهد نهضوي:

النهضة جهود يبذلها الناس في العديد من المجالات، ونحن لا نختلف في أن لدينا الكثير من المؤشرات الجيدة والخطوط العريضة التي ترشدنا في مسيرتنا النهضوية، لكن علينا أن نتذكر دائمًا أننا مهما أوتينا من قوة، فإن سيطرتنا على الواقع تظل ناقصة، كما أن حساباتنا لعوامل النجاح حسابات غير دقيقة بسبب وجود شبكة

معقدة من الأسباب والمعطيات المؤثرة في ذلك، وعلى سبيل المثال فإنه إذا قامت دولة بالتركيز على ( التعليم ) من أجل جعله رافعة حضارية محفزة لكل المجالات الأخرى، فإنها قد تنجح في ذلك نجاحًا باهرًا، وقد لا تنجح النجاح المطلوب؛ لأن الأسر في المنازل لم تقم بالدور المناط بها في ذلك، أو لأن قطاع التعليم لم يستطع استقطاب أفضل العقول إليه بسبب منافسة القطاع التجاري أو بسبب وجود مفاهيم تجعل مهنة التعليم غير مرغوبة. إذا تحسَّن التعليم فعلًا فإن قطاعًا كقطاع الزراعة - مثلًا - قد لا يستفيد منه بسبب هجر الناس له لانخفاض قيمة المنتجات أو بسبب الجفاف أو بسبب وجود قطاعات أخرى أشد جاذبية، وإذا لم يستفد قطاع الزراعة، فإن تأثير ذلك على النهضة العامة غير معروف بالضبط، فاليابان - مثلًا - تستورد الكثير من غذائها، ومع هذا فإنها تتمتع باقتصاد قوي جدًّا ووضعية حضارية متقدمة.

إن الاندماج العالمي الذي نشاهده اليوم قد جعل التحكم بالشأن الداخلي ضعيفًا؛ فقد يكون لدى دولة الكثير من النفط أو الذهب أو اليورانيوم، ولا تستفيد منه في تمويل مشروعاتها كما كانت تؤمل، وذلك بسبب ضعف الطلب العالمي أو وجود مشكلات في عملية الاستخراج أو بسبب ضخامة الاستهلاك المحلي...

الرسالة التي أود إيصالها هي أن المشروعات والخطط النهضوية التي تُطرح من قبل هذا الشخص أو ذاك، ومن قبل هذه الجهة أو تلك تظل اجتهادية مظنونة النتائج، والخذلان قد يأتي من خطأ في التصور، وقد يأتي من قصور في التطبيق أو من تغير بعض المعطيات أو ظروف بعض المجالات، والمطلوب دائمًا هو التصحيح المستمر والاستعانة بالقوي العزيز، والاستعداد لكل الاحتمالات.

### ٦- المشي على حبل مشدود:

لا تحدث النهضة بسبب وجود أنشطة مثمرة وموزعة على المسارات والمجالات المختلفة، بل لا بد من رصد الآثار السلبية التي تتركها الأنشطة النهضوية في أي مجال في المجالات الأخرى؛ فقد يحدث تقدم اقتصادي ظاهر، لكنه يقترن بتراجع أو انحطاط أخلاقي، وقد يحدث اهتمام كبير بالتعليم دون وجود فرص عمل للخريجين، وقد يحدث تقدم صناعي قائم على التقليد دون اهتمام بالبحث العلمي..

إن هذا كله قد حدث في كثير من بلدان العالم، وكانت نتيجته نهضة عرجاء وإساءة للأهداف النهضوية الكبرى.

يحدث الخلل المشار إليه حين يتم وضع خطط النهضة من قبل أشخاص غير متجانسين ثقافيًا، ويحدث إذا وضع كل أهل مجال خططهم بمعزل عن الخطط الموجودة في المجالات الأخرى، كما يحدث أيضًا حين تتوفر المعطيات المساندة والمحفزة على النهضة في مجالات دون مجالات.. هذا يعني أن علينا دائمًا أن نضع بعض المبادئ، ونثير دائمًا بعض الأسئلة التي تساعدنا على النهوض المتوازن، **ولعل من المبادئ التي تحقق ذلك ما يلي:**

١ - للحفاظ على توازننا النهضوي، فلا بد لنا من النظر إلى عملية التنمية بمنظار غير منظار الغرب؛ حيث إن أولوياتنا مختلفة عن أولويات الغربيين، والمشكلات الملحَّة لدينا مختلفة عن مشكلاتهم.

٢ - مع أن النهضة لمصلحة كل المواطنين، لكن ينبغي أن تكون العناصر الضعيفة هي المستفيد الأول، وذلك من أجل تحقيق العدالة بمعناها العميق.

٣ - لا يصح استهداف النمو بأي ثمن؛ ولذا فلا بد أن ينمو الاقتصاد والثقافة في إطار المبادئ والقيم الكبرى التي يؤمن بها المجتمع.

**ومن الأسئلة التي ينبغي طرحها هنا:**

أ ـ كيف نستطيع الانفتاح على العالم دون أن نؤذي الهوية الإسلامية التي تمنحنا التميز؟

ب ـ إذا كانت العدالة قيمة والحرية قيمة، فما الحدود التي ينبغي أن تقف عندها الحرية حتى لا تضر بالعدالة؟

ج ـ كيف نعالج التفسخ الأخلاقي الناتج من المنافسة التجارية؟

د ـ كيف نوسع دائرة الطبقة الوسطى في ظل اقتصاد حر ومنفتح؟

إن العمل النهضوي يشبه المشي على حبل مشدود؛ حيث إن السقوط في الجهة اليمنى أو اليسرى دائمًا وارد، ولهذا فلا بد أن يكون الاستدراك ومحاولة التصحيح جزءًا أصيلًا من أي مشروع نهضوي.

## ٧- لكل بلد خطته النهضوية الخاصة:

النهضة عمل يبدأ، ولكنه لا ينتهي. وإن لكل بلد ـ مهما كانت أوضاعه ـ أولوياته

النهضوية، وله ظروفه ومشكلاته؛ ولهذا فإن المطلوب من كل دولة أن تضع خطة نهضوية شاملة تعمل على إنجازها خلال مدة محدودة - عشرون سنة مثلًا - وينبغي أن تكون تلك الخطة ذات طابع ( كمي ) حتى يمكن قياس ما يتحقق من أهدافها على نحو جيد، **ولعل من مفردات تلك الخطة الآتي:**

- تحديد القطاع الذي سيتم التركيز عليه، وتحديد مقدار مساهمته في الناتج القومي في نهاية الخطة.
- عدد الجامعات التي ينبغي أن تكون ضمن أفضل مئتي جامعة في العالم.
- التقدم في توسيع الطبقة الوسطى، كأن تشكل مثلًا ( ٧٠ ٪ ) من مجمل السكان.
- تقليص من هم تحت خط الفقر إلى ( ١٠ ٪ ) مثلًا.
- القضاء على الأمية والاحتفال في آخر الخطة بتقلص الأميين إلى ( ٣ ٪ ) من المواطنين.
- شمول التأمين الصحي ( ٨٠ ٪ ) من السكان على الأقل.
- القضاء على التعذيب نهائيًا في السجون.
- التمكن من إجراء انتخابات حرة ونزيهة لا يتهم فيها أحدٌ أحدًا بالتزوير.
- أن يصبح البلد ضمن الثلاثين دولة الأولى في الشفافية ومكافحة الفساد.
- زيادة عدد المؤسسات الخيرية والتطوعية واللاربحية ( ٥ ٪ ) سنويًا.
- لا يزيد الفارق بين مرتب المدير التنفيذي والعامل الفني على عشرة أمثال في أي حال من الأحوال.
- يحقق البلد اكتفاءً ذاتيًا من المواد الغذائية لا يقل عن ( ٨٥ ٪ ).
- يتمكن البلد من تصنيع ( ٥٠٪ ) من الأسلحة التي يحتاجها جيشه في الدفاع عن شعبه.
- يصنِّع البلد ( ٦٠٪ ) من الأدوية التي يحتاج إليها الناس.
- ترتفع نسبة الكتب المنشورة والمترجمة بما لا يقل عن ( ٧ ٪ ) سنويًا.
- يتمتع القضاء بالاستقلال التام، ويظهر ذلك في قدرته المتدرجة على محاكمة كبار المتنفذين.

- يزيد عدد المساجد سنويًّا بما لا يقل عن ( ٤ ٪ ) من المساجد المتوفرة في بداية الخطة.

- تنخفض نسبة الاعتداءات لأسباب قبلية أو عنصرية ( ٨ ٪ ) سنويًّا طول فترة تطبيق الخطة.

- تنمو معاهد ومراكز قياس الرأي ( ١٠٪ ) سنويًّا بوصفها مؤشرًا إلى تحسن مستوى الحريات العامة.

إن هذه النسب ليست حاسمة ولا دقيقة، وإنما ذكرتها على سبيل التمثيل والتوضيح لما أردته من كون الخطة ذات طابع كمي قابل للقياس.

## ٨- مصطلحات ذات صلة:

لدينا ثلاثة مصطلحات ذات صلة وثيقة بموضوع كتابي هذا، وهذه المصطلحات هي : المشروع، النهضة، الحضارة(١).

**وهذا شرح موجز لهذه المصطلحات:**

- **المشروع هنا عبارة عن أفكار ورؤى لأنشطة متتابعة تستهدف الوصول إلى وضعيات معيشية وإنتاجية محددة في مدة زمنية محددة.** الوضعيات المستهدفة شاملة لكل جوانب الحياة وصعدها كافة.

- **النهضة: يوحي لفظ النهضة بوجود نوع من التجديد للأفكار والقيم والمعارف الموروثة**، لكن المراد من النهضة اليوم أوسع من ذلك بكثير؛ حيث إن ما يتبادر إلى الذهن عند النطق بهذا اللفظ هو التقدم الشامل نحو الأفضل في الأفكار والعلوم والآداب وطرق التعبير والبحوث والدراسات وأساليب العيش والإنتاج عامة، مع ما يصاحب ذلك من تغيرات إيجابية في الممارسات التعبدية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، وما ينجم عن كل ذلك من الشعور بالأمن والسعادة والإنجاز.

- **الحضارة: الكلمة مأخوذة من سكنى الحواضر**، على خلاف البادية حيث ينتقل الناس من مكان إلى مكان. الحضارة هي الغاية التي تسعى إليها الحركات النهضوية في كل زمان ومكان.

---

(١) كنت قد تناولت الشق المعنوي أو الناعم من المدنية، وهو ( الثقافة ) في كتاب خاص أسميته ( ثقافة النهضة ).

إن الحضارة وضعية عامة يشعر من يعيش فيها بقدر كبير من الحرية والكرامة، ويشعر بوجود معطيات ملموسة تجعل حياته أسهل وأكثر أمنًا، كما أنه يشعر بقدر كبير من السيطرة على بيئته والقدرة على مساعدة الآخرين. إن توصيفنا للحضارة يظل قاصرًا بسبب استخدامنا لمفردات لغوية تدل على الكيف وليس على الكم؛ ولهذا نستطيع القول: إن الإنسان المتحضر درجات سواء أنظرنا إلى الحضارة على أنها وضعية يتوفر فيها الكثير من المرفهات، أم نظرنا إليها على أنها وضعية يتوفر فيها الكثير من السمو الروحي والخلقي والتفتح الذهني.. علينا في كل الأحوال أن نقول: إن الحضارة كيان هش، أو مشروع تحت الإنجاز؛ ولهذا فإن على الناس الاستمرار في بذل الجهد من أجل الحفاظ على المكتسبات التي صارت في حوزتهم.

### ٩- مؤشرات إيجابية:

النهضة قبل أن تكون بناء المزيد من الحدائق والمصانع والطرق السريعة هي أفكار وأخلاق وتوجهات ومواقف شعورية، يحس بها الناس بسبب التقدم الذي يحرزونه، وهي نفسها تقوم بدور المؤسس للأعمال العمرانية والمحرض عليها. أنا هنا سأركز على المؤشرات المعنوية؛ لأن المؤشرات المادية معروفة ومشهورة، وقد ألمعت إلى شيءٍ منها قبل قليل:

- زيادة الثقة بالنفس وشعور الجماهير بالقدرة على إنجاز الكثير من الأمور الجيدة التي تعجز عنها الشعوب الأخرى.

- التفاؤل بمستقبل واعد وأكثر إشراقًا، والإعراض عن المتشائمين ومحترفي الدلالة على الطرق المسدودة.

- الشعور بأن الحكومة تبذل ما تستطيع من جهد من أجل المصلحة العامة.

- تحدث الناس بشغف عن الإنجازات الوطنية، وعن الآمال والأهداف المشتركة.

- الثقة بالقضاء وقدرته على إنصاف المظلوم وإجراء أحكامه على الجميع دون أي استثناء.

- اتساع شريحة الفئة العاملة في الحقل الخيري والتطوعي، وتزايد الأموال التي يتبرع بها المحسنون.

- توسع الطبقة الوسطى وتضاؤل الفروقات بين مرتبات الموظفين.
- انتشار مظاهر التدين وتراجع نسبة الجرائم الأخلاقية والمالية.
- طول النَّفَس في العمل، والصبر على تنفيذ المشروعات الكبرى وبعيدة المدى.
- الاعتزاز بالتراث والتواصل الفكري والشعوري مع الرموز التاريخية للأمة.
- شعور أقوى بالتلاحم الاجتماعي، وخفوت صوت النعرات القبلية والعنصرية والطائفية.
- تماسك السلطة السياسية، وإدارة شؤون البلاد بأقل قدر من استخدام القوة.
- الاستعداد العام للتعامل مع الأمور المعقدة، وزيادة الرغبة في الاكتشاف والوصول إلى الأمور الغامضة.
- شعور المواطن أن لديه ملاذات آمنة تعينه على تجاوز الشدائد؛ مثل الجمعيات الخيرية وبعض الأرحام وسكان الحي.

إني آمل أن تكون هذه هي الأهداف التي نسعى إلى تحقيقها.

ولعلي أتحدّث عن بعض هذه الأمور بتفصيل أكبر في ثنايا هذا الكتاب.

### ١٠ - الكتابة عوضًا عن التداول الشفوي:

لا تكاد تجلس في مجلس فيه مثقفون حتى يتم طرح موضوع للنقد، أو تتم الإشادة بفكرة أو مشروع ما، مما يدل على أن هاجس النهضة بات من الهواجس الملحة، لكن النتائج التي نحصل عليها من وراء ذلك دائمًا محدودة، أو غير واضحة، وهذا لأن من الصعب حقيقةً بلورة أفكار نهضوية مترابطة ومثمرة عن طريق أحاديث المجالس والطرح الشفوي؛ حيث ثبت أن ( الكتابة ) تنظم الفكر، وتجعل رؤانا في الإصلاح والنهضة أفضل ترابطًا ورشدًا ومنطقيَّة.

ومن المؤسف في هذا السياق أن كثيرًا من قادة الصحوة وكثيرًا من المهمومين بالنهضة والتقدم لا يكتبون ما يتبلور لديهم من أفكار ثمينة وخطيرة، وهذا يجعل خرائطهم الذهنية ناقصة ومشوشة، ولهذا فإني أدعو كل مثقف مهتم بشؤون بلده أن يكتب ما يتحصل لديه من أفكار ورؤى، ويقوم بطرحها للنقاش العام، فالأفكار لا تنضج إلا إذا لاكتها ألسنة المناظرة، وهذا أفضل بكثير من أن ينشغل المهتمون

بالإصلاح على مدار الساعة بحل المشكلات الطارئة، وكأنهم عمال مطافئ!. أنا في هذا الكتاب أحاول التحدث عما يمكن تسميته ( متن ) الرؤية النهضوية معرضًا عن الخوض في كثير من التفاصيل؛ لأن المسلمين موزعون على كل قارات الأرض وبلاد الدنيا، وزمام الأمور في كثير من البلاد ليس في أيديهم، كما أن بينهم الكثير من التباينات الثقافية والحضارية، وهذا يجعل الخوض في الجزئيات غير ذي معنى، بل إنه قد يضر أكثر مما ينفع.

كلمتي الأخيرة في هذا التمهيد هي أنني في هذا العمل لا أطمح إلى وضع خطوط عريضة وشاملة لنهضة مرتقبة، ومأمولة، فذلك أكبر من أن يتصدى له كاتب أو خمسة من الكُتّاب، ولكن كل ما أطمح إليه هو إنارة بعض النقاط المظلمة ولفت الانتباه إلى ما أعده أمورًا مهمة في مساعينا نحو التحضر. والله الهادي إلى سواء السبيل.

أ. د. عَبْدُالكَرِيم بَكَّار

# الفكر النهضوي

حين نتحدث عن الفكر النهضوي أو فكر النهضة فإننا سنجد هناك من يتساءل: هل بعد كل تجربتنا الحضارية العريقة، وبعد كل ما شاهدنا من نهضات على مستوى العالم ما زلنا في حاجة إلى بلورة أفكار محددة كي تكون لنا نهضة خاصة وجديدة؟

الجواب: نعم؛ إذ إن الحصيلة المتوفرة من أفكار النهضة ليست موضع إجماع، وهي تحتاج إلى شيء من الغربلة والترتيب بحسب أوضاعنا وأولوياتنا، ولا شك أن المشترَك الفكري على الصعيد النهضوي كبير لكنه في حاجة إلى تنزيل على واقع كل بلد عربي ومسلم، والذين سيقومون بذلك هم أهل البلد أنفسهم، ولا شك أنهم سيعانون في تشخيص ذلك الواقع وفي تشخيص إمكاناتهم والفرص المتاحة لهم، وهذا كله يعني أن يكون لكل بلد مشروعه النهضوي، وهذا بالضبط ما دعاني إلى أن يكون ما أكتبه هنا عبارة عن مقدمة لمشروع، وليس مشروعًا مكتمل الملامح.

إن في إمكاني أن أشبه دور ( الفكر ) في النهضة بـ ( أساس البناء )، إنه شيء لا بد منه، لكنه طبعًا لا يُسكن، وهكذا فنحن لسنا في حاجة إلى الأفكار النهضوية الممتازة فحسب، بل لا بد من أن نوفر لاستثمارها الأطر والمؤسسات والمشروعات والبرامج التنفيذية، وأعتقد أن الجيل الجديد يملك عقلية عملية أفضل بكثير مما يملكه جيلنا، ومن هنا فإني أشعر بكثير من التفاؤل بقدرتنا على تجاوز التنظير إلى العمل على الأرض.

إن ما يمكن قوله حول الفكر النهضوي كثير جدًّا، ولمَ لا وعلماؤنا ومفكرونا يكتبون في هذا المجال منذ ما يزيد على قرنين، لكن لا بد لكل أهل زمان وكل أهل بلد من أن يسهموا في بلورة الأفكار التي يحتاجونها لنهضتهم، وهذا ما سأحاول القيام به هنا على نحو مركز ومضغوط.

الأفكار التي سأطرحها هي أفكار اجتهادية نابعة من خلفية ثقافية معينة وصادرة عن رؤية نهضوية محدودة، ولهذا فينبغي تلقيها على أنها أفكار قابلة للجدل والإثراء والتهذيب والتعديل. هنا أجد نفسي مضطرًّا للحديث عن بعض الأصول والمنطلقات ممزوجةً ببعض الأفكار العملية بسبب صعوبة الفصل بين هذه وتلك، وذلك على النحو الآتي:

### ١ - رؤية معقدة:

لا نستطيع النهوض بأمتنا وبلادنا من غير رؤية شاملة ومعقَّدة للواقع الذي نعيشه وللوضعية التي نرغب في الصيرورة إليها، وإنما كانت الرؤية النهضوية معقدة بسبب تنوع وكثرة الأمور التي ينبغي أخذها بعين الاعتبار؛ حيث إن من الواضح أن هناك تداخلًا وتشابكًا بين العادات الشخصية للناس وبين المعطيات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية؛ ولهذا فإن فهم الناس للطروحات الإصلاحية واستجابتهم إليها من الأمور المتباينة والغامضة، أضف إلى هذا أن تقويم الناس لمشكلاتهم وأوضاعهم تقويم متفاوت بسبب تفاوت المستوى الثقافي والتربوي وتفاوت ما لديهم من اتصال بالمحيط العالمي، وهذا يملي على المنظِّرين توجيه طروحاتهم في سياقات محددة، وجعلها مبسَّطة وأحيانًا سطحية.

إذا سلمنا بهذا الطرح فإن هذا يُلزمنا بتقديم رؤانا النهضوية بأساليب مختلفة وعلى مستويات متعددة بغية إيصالها إلى أكبر عدد ممكن من الناس.

### ٢ - ليس لدى أحد حلول مثالية:

من المهم أن نوقن أنه مهما كان لدينا من أفكار ممتازة وإمكانات عظيمة فإن ما نطرحه من حلول وإجراءات للمشكلات الحاضرة، وما نطرحه من أفكار للتقدم يظل موسومًا بالقصور والنقص، أي إن النتائج التي سنحصل عليها بسببه تظل ناقصة وموضع جدل وأخذ ورد، وهذا في الحقيقة يعود إلى عدد من الأسباب الموضوعية، منها:

- **كل ثمار الجهد الإنساني نسبية الكمال**، وما من عمل أو حل متقدم إلا وهناك ما يمكن أن يكون أكمل أو أكثر تقدمًا منه، وقول الخالق ﷻ: ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾[ يوسف: ٧٦ ] يشير إلى هذا، لكن الدلالة معمَّمة على العمل الإنساني كله.
- **نحن لا نسيطر على الواقع بشكل كامل**، فهذا للّه العزيز القادر وحده، وعلى سبيل المثال فقد يقتضي حل مشكلة من المشكلات نزول المطر أو عدم نزوله، وقد يقتضي بقاء أسعار المواد في نطاق معين، وقد يقتضي عدم قدوم منافس جديد محلي أو عالمي.. وهذا كله خارج نطاق السيطرة.
- **من الواضح أن نجاح كثير من الجهود التنموية والنهضوية يتوقف على تعاون الناس**

**ونوعية ردود أفعالهم على المشروعات المقترحة**، وعلى مدار التاريخ كانت عادات الناس وأمزجتهم ومصالحهم الخاصة سببًا جوهريًّا في إجهاض كثير من المبادرات النهضوية، وعلى سبيل المثال فإن التخفيف من استهلاك الطاقة تطلب في بلدان كثيرة أن يترك الناس ركوب سياراتهم الخاصة، ويستخدموا وسائل النقل العام، كما أن اختصار تكاليف الرعاية الصحية تطلب من المواطنين الكف عن التدخين وممارسة الرياضة، وتطلب تحسين الأداء في بلدان كثيرة حضور المواطنين في الوقت المحدد، كما تطلب الامتناع عن تناول الفطور في الوظيفة... ولكن استجابة الناس كانت ضئيلة أو متوسطة، مما يعني فشل المبادرات في هذه الشؤون.

- **حين نحقق إنجازًا من الإنجازات، فإننا قد لا نستطيع جعله يحافظ على قيمته مدة طويلة بسبب تغير الظروف والأوضاع**، وفي هذا السياق فقد لقيت صناعة بعض أنواع الفرش إقبالًا هائلًا في مرحلة من المراحل ( الموكيت مثلًا ) ثم أعرض الناس عنه وانصرفوا إلى السجاد أو الرخام أو ( السيراميك ) مما جعل الابتكارات التي تمت فيه تفقد بعض قيمتها، وهكذا.. ما الذي يعنيه هذا؟

إنه يعني ألا نركن إلى إنجازاتنا، وألا نعول عليها كثيرًا، كما يعني ألا نصاب بالغرور حين نحقق نهوضًا استثنائيًّا في مجال من المجالات، ويعني أخيرًا أن نخطط للحصول على نجاح جديد ونحن في قمة نجاحنا.

### ٣ - لا رؤية موضوعية للواقع:

هذه نقطة مهمة جدًّا، وذلك بسبب أن النهوض بالأمة يقوم على ركنين أساسيين، **الأول**: هو تشخيص الواقع ومعرفة أكبر قدر ممكن من تفاصيله، **والثاني**: طرح المشروعات والخطط والمبادرات للارتقاء به، ومما لا ريب فيه أن نجاح العلاج قائم على نجاح التشخيص، ومن المؤسف هنا أن تشخيص واقع شعب أو دولة يظل في غاية المشقة، وذلك لعدد من الأسباب؛ منها:

**أ - نحن حين نتحدث عن التخلف أو واقع متخلف**، فإننا في الحقيقة نتحدث عن معانٍ لها دلالات في الواقع، كما هو الشأن حين نحاول تشخيص مشكلات مثل الفقر والمرض والاستبداد والجهل والانقسام الاجتماعي والبطالة.. هذه المشكلات؛ لها تعريفات محددة، ويرتبط بها عدد كبير من المصطلحات الفنية، ومن المؤسف أن

دلالة تلك التعريفات والمصطلحات تظل رخوة وفضفاضة وموضع نزاع وخلاف، ولو أنك تأملت تعريف ( البطالة ) على سبيل المثال لوجدت عشرات التعريفات التي يترتب عليها اختلاف في المعالجة، وهذا يشتت مواقف الإصلاحيين والمنظِّرين للشأن النهضوي.

ب - **لا تتوقف المشكلة عند غموض التعريفات وقصورها**، وإنما تتجاوز ذلك إلى تفسير ما نسمعه، وتقيمه والتفاعل بالتالي معه، والحقيقة أننا حين نقرأ نصًّا، أو نسمع عن وضع معين، فإننا ندركه ونحلله من أفق معتقداتنا وخبراتنا وخلفياتنا الثقافية، وبالتالي فإن مدلولات ما نقرأ ونسمع، تصبح متعددة بحسب ما لدينا من تباين واختلاف، وليس بخافٍ أن مدلول كلمة ( ملتزم ) لدى الشخص الورع المثقف ثقافة شرعية عالية مختلف عن مدلولها لدى مسلم عادي يؤدي بعض الفرائض، ويقصر في بعضها الآخر، كما أن فهم الناس لمدلول كلمة ( استبداد ) في مجتمع ينعم بقدر عالٍ من الحرية منذ قرن مختلف تمامًا عن شعب يرسف في أغلال العبودية منذ قرون، وهذا الفهم يحدد نوعية ردود أفعال الناس تجاه الأفكار والدعوات النهضوية والإصلاحية، ويؤثر في نتائجها.

ج - **نحن في الحقيقة لا نرى سوى جزءًا من الواقع، فأنت حين تعيش في مدينة كبيرة لا ترى أكثر من ( ١٪ ) مما يجري حولك**، وما يتم من أحداث صغيرة داخل البيوت لا يراه أحد، وحين نود الاطلاع على ما يجري فإننا نلجأ إلى القنوات التلفزيونية وإلى الصحف والمجلات.. وإن اطلاع كل العاملين في الإعلام على كل ما يجري غير ممكن بالطبع، وحين يطلعون فقد يستطيعون فهم ما يطلعون عليه، وقد لا يستطيعون، وإذا وجِدت الاستطاعة، فقد يتم التعبير عما تم فهمه ونقله بصدق وأمانة، وقد يتم التعبيرعنه وفقًا لحسابات معينة.

نحن نلجأ كذلك إلى المسح والإحصاء في فهم الواقع، ولا شك في أن الإحصاء ودراسة مدلولات الأرقام شيء رائع وعظيم، لكن هذه العملية تظل محفوفة بالمخاطر، فالناس الذين نستطلع آراءهم قد يتمكنون من فهم أسئلتنا ومن الإجابة عنها بصدق وحرية، وقد لا يتمكنون، كما أن الأرقام قابلة دائمًا للتلاعب، وفي معظم أنحاء العالم لا يثق كثير من الناس في الإحصاءات الحكومية - مثلًا - مما يعني في النهاية أن

الوقوف على حقيقة ما يجري على الأرض دائمًا متعثر وناقص وغير موضوعي. هذا يعني أن نحسِّن أدوات فهمنا للواقع، وأن نتلقى كل المعلومات المعبرة عنه على أنها مؤشرات غير دقيقة؛ ولهذا فإنها تظل قابلة للتمحيص والمراجعة.

### ٤ - حل المشكلات الجديدة يحتاج إلى فكر جديد:

تغيرُ كل شيء من حولنا جعل نوعية المشكلات التي نعاني منها مختلفة عن المشكلات التي عانى منها الناس قبل قرن أو قرنين من الزمان، وهذا يتطلب نمطًا جديدًا في التفكير يلائم طبيعة المشكلات الحديثة. النمط في نظري هو عبارة عن عدد من المسلَّمات والمقولات والأفكار المترابطة والمتصلة بالواقع، والحقيقة أن تغيير أنماط تفكيرنا ليس مطلوبًا؛ لأننا نواجه مشكلات جديدة فحسب، وإنما من أجل الاستفادة من الملاحظات والخبرات المتراكمة لدينا. الأفكار والمسلمات التي تمثل أنماط التفكير القديمة والجديدة كثيرة للغاية، سأعرِض هنا لشيء يسير منها عبر المفردات الخمس الآتية:

- **كان الناس يعتقدون أن الانغلاق والانكفاء على الذات هما الحل الأمثل لحماية الهوية والمكتسبات الوطنية حين تشتد الهجمات من الخارج**، وما زال هذا الاعتقاد سائدًا لدى كثير من الناس، لكن النمط الجديد في التفكير يشير إلى أن الانفتاح المتحفظ والتبادل والمشاركة هي الطريق إلى حماية الذات، وذلك بسبب كون العزلة تؤدي إلى الضعف والتهميش، وتدفع بالتالي إلى انفتاح مشوه، ويشكل التعامل مع منتجات ( العولمة ) اليوم نموذجًا واضحًا لما نقول.

- **كان الاعتزاز بالأفكار الشخصية علامة على وضوح الرؤية والثقة بالذات**، ومع أن على المرء دائمًا أن يثق بأفكاره، وأن يدافع عنها، إلا أنه قد تبين أنه مع تراكم الخبرات ونضوج التجربة الإنسانية صارت مراجعة الأفكار الشخصية والمسلَّمات الخاصة مطلوبة، إننا حين ننضج ندرك أننا نجتهد، وأن غيرنا كذلك يجتهد، والخطأ قرين الاجتهاد، كما أننا ندرك أيضًا أننا كلما تعمقنا في البحث أكثر وجدنا أنفسنا نتحدث عن جزئيات وتفريعات، وهي بالطبع مناط للخلاف وتباين الآراء؛ لهذا كله فنمط التفكير الجديد يدعو إلى الاستمرار في الاجتهاد وتمحيص الآراء وبلورة النظريات سعيًا إلى أفضل الصيغ الممكنة.

- **كان التنافس في الماضي كثيرًا ما يفضي إلى الاقتتال وحياكة المؤامرات،** لأن الوعي البشري لم يكن قد توصل إلى أهمية إيقاف التنافس والخلاف عند حدود معينة، بل ربما لم يتوصل إلى أن ذلك ممكن أصلًا، أما اليوم فإننا نعتقد أن التنافس ينبغي أن يتحول إلى شكل من أشكال التعاون، وهذا نابع من اتساع الرؤية والإحساس المشترك بوجود فرص كثيرة للوقوف على أرضية واحدة، بل بوجود فرص للتكامل والاستفادة المتبادلة من الإمكانات التي يملكها الآخرون، وهكذا فإن كثيرًا من المنظمات الدولية على الصعيد التجاري والمالي تعمل في الحقيقة على تنظيم التنافس، وتحويله من شيء يحرِّض على انحطاط المدنية إلى شيء مفيد للجميع.

- **أنماط التفكير القديمة تميل إلى البساطة، على حين أن الأنماط الجديدة تميل إلى التركيب،** وهذا التحول نابع من إدراك ذلك التشابك الهائل بين كل مظاهر الوجود، كما أنه يعود إلى التقدم الحضاري الذي جعل كل فضاء من فضاءات وجودنا حسَّاسًا للتغيرات التي تحدث في الفضاءات الأخرى.

ومن هنا فإن تفكيرنا اليوم يميل إلى التفسير المركب لأسباب الظواهر والوقائع المشاهدة، فالفقر ـ مثلًا ـ لا يكون بسبب الكسل أو الجهل أو شح الموارد الطبيعية أو فساد نظام الحكم أو الكوارث الطارئة أو سوء التدبير.. فحسب، إنما هو نتاج نسيج معقد من ذلك كله، ولهذا صرنا نقول اليوم: لا شيء بمفرده يحقق السعادة أو النجاح، ولا شيء بمفرده يحقق الإخفاق أو التعاسة..

ونحن نعتقد اليوم أيضًا أن معالجة مشكلة من المشكلات قد يتطلب البحث عن علاج لها في فضاء آخر غير فضائها الطبيعي، وهكذا فقد يعود إخفاق شاب في دراسته إلى سوء أخلاق بعض مدرسيه، وقد يعود إلى أنه يدرس في تخصص لا يملك ما يكفي من الرغبة أو القدرة للنجاح فيه، وقد يكون بسبب المشاكسات التي تجري بين أبيه وأمه على نحو مستمر، وقد يكون بسبب قرناء السوء الذين أغروه بترك الدراسة والالتحاق بهم للعمل في مهنة من المهن، وقد يكون إخفاق ذلك الشاب بسبب توفر سببين أو ثلاثة أسباب مما أشرنا إليه، والقاعدة العامة في هذا تقول: كلما كانت الظاهرة أكبر، توقعنا أن تكون أسباب وجودها أكثر.

وهكذا فإن إخفاق جيلين أو ثلاثة في حب القراءة والحرص على اقتناء الكتاب

يعود إلى أسباب أكثر بكثير من إخفاق طالب أو طلاب مدرسة في ذلك، ولم يكن نمط التفكير القديم على هذا النحو..

- **لو نظرنا إلى أدبياتنا الموروثة في مسائل الإنفاق والتصرف بالمال لوجدنا أنها تميل إلى الحث على الزهد والتقتير في الإنفاق**، كما أنها تميل إلى التخويف من الإفلاس المفاجئ، ومن الجوائح التي قد تذهب بكل شيء..اليوم هناك نظرة مختلفة للأمر؛ حيث صار من الثابت لدى علماء الاقتصاد أنه من أجل توفير فرص عمل للأجيال الجديدة لا بد من استثمار جزء من الناتج القومي لتوظيفه في مشروعات وأعمال جديدة، وهذا سيؤدي إلى زيادة الإنتاج وإلى الوفرة في السلع المعروضة ، وهذا يعني في النهاية تحفيز الناس على التوسع في الإنفاق، وإذا لم يحدث ذلك فإن كثيرًا من الشباب لن يحصلوا على أي عمل مما قد يؤدي إلى اضطرابات سياسية واجتماعية واسعة النطاق، وتظل الرؤية القرآنية في هذا هي نصاب الرشد والرشاد، فالاعتدال في الإنفاق والتوسط بين الشح والتبذير هو الذي يحقق مصالح كل الأطراف.

### ٥ - مقاومة النزعة الماضوية:

أود أن أبتدر القول: إن الكتاب والسنة ليسا من التراث، وإنما هما منهج حياة على اختلاف الزمان والمكان، كما أود أن أبتدر القول: إننا نفخر بحضارتنا وتاريخنا وإنجازات آبائنا وأجدادنا، فهذا مما لا ينبغي الجدال فيه، وهذا كله شيء وما نريده هنا شيء آخر؛ حيث إن كل ما ينتجه الإنسان مشوب بالنقص والخطأ والوهم، وقد حاول صالحونا التفاعل مع الهدي الرباني من أجل صلاح أمور دينهم ودنياهم، لكن نتائج ذلك التفاعل قد تُحسب لهم وقد تُحسب عليهم.

وعلينا ألا ننسى إلى جانب هذا أن كثيرًا ممن تولوا قيادة الحياة الإسلامية لم يكونوا صالحين، وبالتالي فإنهم لم يجسدوا الأخلاق الإسلامية، ولم يحققوا تطلعات المسلمين، مما يعني أن النزعة إلى منح التقديس لكل ما هو من الماضي نزعة خاطئة بكل ما تعنيه الكلمة من معنى.

إنني أقول بكل ثقة: إن إنتاجنا لفكر نهضوي مثمر يتطلب ممارسة شجاعة للنقد التاريخي مستعصمين بالمنهج الرباني الأقوم، وبما هدتنا إليه تجربتنا التاريخية العريضة.

إن حلول المشكلات التي تعاني منها الأمة اليوم ليست موجودة لدى السابقين، كما أنها ليست موجودة لدى العالم المتقدم أيضًا، وإن من سنن اللّٰه تعالى في الخلق ذلك الاتساع المتواصل في شؤون الحياة، مما يجعل الأفكار السابقة عاجزة عن حل المشكلات اللاحقة، ومن ثم فإن علينا أن نبدع في حل مشكلاتنا من أفق عصرنا وإمكاناتنا الراهنة، وعلى سبيل المثال فإننا لن نستطيع العثور على حلول للتحلل الأخلاقي أو البطالة أو أشكال التحايل على القانون أو الانبهار بالتقنية... عن طريق قراءة ما فعله أسلافنا قبل خمسة أو عشرة قرون؛ لأن التركيب القيمي والثقافي الذي كان سائدًا في الماضي مختلف عن التركيب السائد اليوم، كما أن تطلعات الجيل الجديد مختلفة عن تطلعات الأجيال السابقة.

ولا يخفى أن الأمية تفشت في عالمنا الإسلامي على مدى قرون متطاولة، مما يعني انتشار الأوهام والخرافات والبدع..كما أن الاستبداد والظلم والقهر والفقر من الأمور التي كانت حاضرة في معظم فترات التاريخ الإسلامي، مما يعني وجود الكثير من التشوهات الفكرية والنفسية والأخلاقية، وهذا كله يوجب علينا التجديد في مناهج التفكير والحذر عند العودة إلى التاريخ من الوقوع في مصايده وفخاخه.

### ٦ - الإصلاح لا يكون بالفوقية:

النهضة في الحقيقة عبارة عن جهود إصلاحية متتابعة، والإصلاح يقوم على ترسيخ عدد من القيم العظيمة؛ مثل العدل والنزاهة والجدية وحسن التدبير والانفتاح وحب المعرفة والاستقامة السلوكية...

ونحن نعرف أن القيم لا تُفرض فرضًا، ولكنها تجذب الناس إلى امتثالها من خلال ما يشاهدونه من سلوكيات القدوات ومن خلال المواقف العظيمة لأعمدة النهضة. حاول زعماء، مثل محمد علي باشا وعبد الناصر، وحاولت أيدلوجيات كبرى، مثل الاشتراكية والشيوعية فرض ما يُعتقد أنه إصلاح ونهوض، وقد باءت كل المحاولات بالإخفاق الذريع، والعامل المشترك بينها هو ( الفوقية ) وحمل الناس على السير في اتجاه محدد.

تجربة الإسلام في هذا الموضوع عظيمة؛ حيث إنه بسط سلطانه، وجعل الناس يدخلون فيه أفواجًا من خلال جاذبيته الخاصة التي تجلت في سلوك المؤمنين به،

ومن خلال شرح الدعاة والجهد التربوي المبذول في البيوت. لا شك أن في إمكان الحكومات سَنَّ القوانين التي ترى أنها تساعد على النهوض، لكن ينبغي أن نكون حذرين جدًّا في هذا؛ حيث إن القانون الذي لا يتمتع بنوع من المنطقية والواقعية، والقانون الذي لا يرتكز إلى قيم المجتمع وقناعاته؛ سيفشل في تحقيق أغراضه، وسيتم الاستهتار به والتحايل عليه، ولدينا مئات الأمثلة على ذلك.

على مدار التاريخ كان من بأيديهم السلطة منجذبين إلى استخدام وسيلتين في الإصلاح: استعمال القوة وسَنّ المزيد من القوانين، وأثبتت التجارب أنهما وسيلتان قاصرتان.

### ٧ - نهوض لتلبية الاحتياجات الروحية:

منحنا الخالق ﷻ ملكَة عظيمة من خلالها نستطيع التفريق في أحيان كثيرة بين ما هو وسيلة نستخدمها، وبين ما هو غاية نسعى إليها، ونحن نلمس اليوم على نحو واضح أن الثراء والرفاهية وكثرة الأدوات التي بين أيدينا لم تملأ الفراغ الروحي الذي يعاني منه كثير من الناس، كما أنها لم تجعل كثيرين يشعرون أنهم يعيشون من أجل غايات أعظم أهمية، أو يشعرون أنهم أكثر سعادة من آبائهم وأجدادهم.

**وهذه بعض الملاحظات حول هذه القضية:**

أ - **الناس في البلاد الأكثر تقدمًا والأفضل معيشة يعانون من نوع من الاكتئاب، والاضطراب النفسي**، ويشعرون أن الرأسمالية لم تمنح حياتهم المعنى، ولم تمنحهم القدرة على التضحية من أجل أي شيء، وهذا قد أدى إلى كثرة حالات الانتحار وكثرة المحتاجين إلى مراجعة العيادات النفسية وكثرة حالات الطلاق.. الناس يشعرون بالحاجة إلى أشياء لم توفرها الحضارة لهم، ويشعرون بأن افتقارهم إلى الغايات والأهداف الكبرى هو على مقدار ثرائهم بالوسائل والأساليب.

ب - **المسلم مشدود إلى الآخرة، ومتشوق إلى الفوز برضوان اللّه تعالى**، لكن وعي الجيل الجديد مشغول بالنجاح في الحياة وتوفير الاحتياجات المادية المتكاثرة؛ ولهذا فإن من المأمول أن تركز الخطط النهضوية على إنشاء تيار روحي قائم على حب اللّه تعالى ورسوله ﷺ، وقائم على إثراء الروح من خلال كثرة التعبد والتقرب إلى اللّه تعالى. والغريب أن خطط التنمية في معظم الدول الإسلامية تتجاهل هذا

الموضوع على نحو شبه كامل، وهذا أمر معيب للغاية!

ج - **النهضة الحقيقية هي النهضة التي تستهدف الارتقاء بالإنسان: روحه وعقله وقلبه وطموحاته**، وهذا هو الذي يسوِّغ الجهود الهائلة التي نبذلها على طريق التقدم، ومن هنا كان التعليم والتدريب وتوفير البيئة المحفزة على الاستقامة وتنشيط العمل التطوعي والاجتماعي من أهم ما ينبغي الاهتمام به ودعمه. بعض أهل الخير يساعدون الإنسان المسلم على البقاء على قيد الحياة، لكنهم لا يساعدونه على أن يحيا الحياة الطيبة المباركة، إنهم - مع الأسف - يعاملونه كما يعامَل الحيوان، ويهملون حاجاته الروحية والنفسية والذهنية؛ ولهذا فإن من يتحمس لابتعاث طالب على حسابه أو نشر كتاب أو تقديم دعم نفسي لمجموعة من المجموعات.. دائمًا قليلون!

د - **الإنسان في حاجة إلى التعاطف والتراحم والمساندة والتقدير**، ومن النادر أن تجد اليوم من يهتم بترسيخ هذه القيم في المجتمع؛ حيث إن معظم ما يُقدَّم من دورات تدريبية يعلم المتدربين كيفية التأثير في الآخرين والسيطرة عليهم وكيفية تحقيق النجاح في المنافسة والتفوق على الأقران، وهذا مؤشر مقلق بحق!

هـ - **الحديث اليوم يتركز على التقدم التقني وعلى توفير المزيد من المرفهات**، كما يتركز على موضوعات مثل حل المشكلات وتجديد أساليب الإنتاج وتسويق المنتجات.. أما الحديث عن الأمور التي تجعل الإنسان إنسانًا، فإنه محدود وهامشي. النهضة الحقيقية هي النهضة التي تجعل الناس يشعرون بالسكينة والطمأنينة والاستقرار، ويشعرون براحة الضمير، وهذا يتم من خلال العمل على إعلاء شأن بعض القيم الأساسية؛ مثل صيانة حقوق الضعفاء والعدل وتكريم الإنسان لكونه إنسانًا، وتقوية النسيج الاجتماعي ومحاربة العنصرية وما شابه ذلك... باختصار: النهضة التي لا تستهدف الارتقاء بالإنسان، هي نهضة ضد الإنسان.

### ٨ - لا للواحدية السببية:

لعلي أقول في البداية: إننا نتحدث هنا عن فكر النهضة، أي أننا نتحدث عن مقدمات وأسس ذات علاقة بالظواهر الحضارية والإنسانية الكبرى، فنحن هنا لا نتحدث عن تخلف شخص أو تقدمه، وإنما نتحدث عن تقدم وتخلف شعب أو أمة أو بلد،؛ ولهذا فإن التحذير من الوقوع في فخ ( واحدية الأسباب ) إنما ينصبُّ على الحديث عن

الظواهر الكبرى التي تمس كتلة كبيرة من البشر، وهذا يمكّنني من القول : إن من الطبيعي أن تكون أسباب الحوادث والحالات الصغيرة والفردية قليلة وقليلة جدًّا؛ حيث إن من الممكن أن يموت زيد من الناس بسبب دهس سيارة له، كما أن عمرًا من الناس يمكن أن ينشأ نشأة صالحة بسبب وجود أمٍّ ممتازة، وهكذا.... وهذه مقاربة سريعة في هذه المسألة:

١ - **عالم العلاقات هو المصدر الأكبر لكثرة الأسباب المؤثرة في وجود أي ظاهرة من الظواهر،** ولنأخذ ظاهرة مثل ( الفقر ) مثلًا، فلو كان الإنسان مستقلًّا تمام الاستقلال عن البيئة التي يعيش فيها لأمكننا القول: إن كل واحد منا يستطيع أن يصبح ثريًّا من وراء الجهد الشخصي الذي يبذله في مجال اختصاصه، لكن الحقيقة غير ذلك؛ حيث إن الجهد الذي يبذله المرء في بيئة ممتازة تكون ثمراته مختلفة تمامًا عن الجهد الذي يبذله المرء في بيئة محطمة أو سيئة.

ولنأخذ حال ( المزارع ) مثالًا على ما نقول، المزارع في دولة لا تتمتع ببنية تحتية ملائمة، ولا ينال مساعدات جيدة من حكومته يظل - في الغالب - على حافة الفقر، فهو إن اجتاحت حقله جائحة كالجراد لم يجد دولة تقوم بمكافحته، وإذا صار لديه إنتاج وفير لم يجد مخازن جيدة لتخزينه، كما أنه لا يجد طرقًا معبَّدة لنقله إلى مراكز التصدير، وهو لا يجد من يساعده على فتح أسواق جديدة لمنتجاته، ولهذا فالسواد الأعظم من المزارعين في العالم العربي فقراء، وتقدم السودان وبنغلادش وغيرهما نماذج واضحة على ذلك.

أما المزارع في البلدان المتقدمة فإنه يعمل في ظروف أفضل، ويتلقى الكثير من المساعدة من حكومته، ويجد الشركات الكبرى التي تقوم بتسويق منتجاته في أنحاء المعمورة. إذن العلاقة بالبيئة جعلت لفقر هذا المزارع وغنى ذلك المزارع العديد من الأسباب المعقدة.

٢ - **التقدم النهضوي في أي بلد شبيه بالتقدم الصحي،** ونحن نعرف أن التقدم الصحي في العالم كله يقوم على شيئين: التقدم في تشخيص الأمراض والتقدم في طرق علاجها، وهكذا فإننا كلما استطعنا رؤية المزيد من أسباب تخلفنا ومعاناتنا كان سيرنا في طريق التقدم أفضل وأسرع؛ ولهذا فإننا في حاجة إلى استخدام ما لدينا من

خيال وقدرة على فهم الجذور والعلل والأسباب، وكم هو جميل أن نُعقِد الكثير من الندوات والحوارات المتخصصة في تشخيص المشكلات التي نعاني منها، وتسليط الضوء على أسبابها دون الدخول في شرح طرق علاجها حتى يرسخ في أعماق عامة الناس الإحساس بموارد معاناتهم وشقائهم. لو تأملنا على سبيل المثال في أسباب ضعف التعليم لدينا لأمكننا التحدث عن الأسباب الآتية:

- ضآلة المخصصات المالية.
- عدم قدرة التعليم على جذب أفضل العقول والكفاءات.
- ضعف حماس المعلمين للعطاء وضعف حماس الطلاب للتعلم.
- يغلب على أسلوب التعليم التلقين وليس المشاركة، ويغلب على المناهج التقادم والسهولة.
- أمية كثير من الأسر وعدم وجود تقاليد اجتماعية جيدة تجاه دعم المدارس.
- ضآلة الفرص الوظيفية التي تنتظر الخريجين، حيث إن الباطلين عن العمل في كثير من البلدان هم من حملة الشهادات.
- غياب الرؤية الإصلاحية الشاملة لدى كثير من القيادات التعليمية.

رؤية هذه الأسباب بشكل جيد ومفصل تشكل نصف الحل لضعف التعليم، ويكمن النصف الثاني في الإبداع في طرق العلاج والجرأة في اتخاذ القرارات الإصلاحية.

٣ - **لا يكفي أن نعدد الأسباب الكامنة وراء وجود ظاهرة من الظواهر،** بل لا بد من وضع اليد على أكثرها جوهرية وفاعلية، ومن هنا فإن في إمكاننا القول: إن لكل ظاهرة أسبابًا رئيسية وأسبابًا فرعية أو ثانوية، ونحن مطالبون بتحديد كل منها وتوصيفه على نحو جيد، وعلى سبيل المثال فإننا لو نظرنا إلى الخلاف بين الزوجين، على أنه من الظواهر الاجتماعية الكبرى، فإننا نستطيع القول: إن تدخل أهل الزوج في العلاقة بين الزوجين من العوامل الرئيسية للخلاف بينهما، ومثله انحراف الزوج وخيانته لزوجته، أما تدخل الجيران، وكون المرأة من بلد الزوج أو من غير بلده، فهذه من الأسباب الفرعية للخلاف والطلاق.

لا شك أن علينا اعتماد المسح الإحصائي وسيلة أساسية لفرز الأسباب الرئيسية والمؤثرة عن الأسباب الهامشية والثانوية.

وبعد هذا فالحقيقة أن العمل النهضوي كثيرًا ما يقوم على معالجة الأسباب الرئيسية التي تؤدي إلى استمرار التخلف وتكريس مظاهر الانحطاط الحضاري.

### ٩- النقد التاريخي:

لا نهضة من غير نقد للذات: الذات في الحاضر المعيش والذات التاريخية التي تمدنا بالخبرات والرمزيات، وتوحي لنا بأهمية استمرار الماضي من أجل ازدهار المستقبل، والنقد مطلوب أيضًا؛ لأن جميع مسوغات النهضة تفترض أننا نعاني وأن أوضاعنا ليست على ما يرام، وأن هناك فرصًا كثيرة يمكن إذا استفدنا منها أن نصبح أقوى وأفضل. النقد مهم كذلك من أجل التخلص من الأفكار والممارسات السيئة التي تصاحب كل الأنشطة النهضوية، وهذه بعض الأفكار المهمة في هذه المسألة:

أ - **النقد التاريخي مهم لكل الأمم**، لكنه بالنسبة إلى أمتنا أشد أهمية؛ حيث إنه كانت لنا حضارة عظيمة، ثم صرنا نعيش على هامش العالم، وأعتقد أن النقد هو خير وسيلة لتوضيح أسباب أفول حضارتنا، وفي هذا السياق فإن منا من ينفر من نقد السلف نفورًا شديدًا، وكأنهم معصومون عن ارتكاب الأخطاء، وحين تسألهم عن أسباب التدهور الحضاري الذي حلّ بنا، فإنك لا تجد لديهم ما يقولونه. وبعضهم يرى أن الانحطاط الحضاري في الماضي وتعثر نهضتنا في الحاضر كان، وما يزال بسبب الضغوط الخارجية.

أسلافنا حاولوا القيام بالكثير من الأشياء الجيدة، وتفاعلوا مع نصوص الوحي ومبادئ الإسلام، لكن نتائج الجهد البشري دائمًا هي موضع شك وموضع جدل، ومهمة النقد التاريخي بيان أوجه القصور في الاجتهاد الحضاري وفي الممارسات الأخلاقية والسياسية والإدارية.

لا يخفى على أحد أن الأمم تخوض صراعات وجودية فيما بينها، لكن الخطايا والأخطاء التي يرتكبها الناس تظل هي العامل الحاسم في التدهور وذهاب الريح.

ومن الواضح أن وعي المسلمين كان مرتبكًا حيال بلورة رؤية للخلاص من التخلف باختلاف مظاهره، كما أن اتساع رقعة العالم الإسلامي وكثرة الفتن التي كانت تتوارد

على شعوبه من الأسباب التي حالت دون إقامة نموذج إرشادي لنهضة شاملة ومتكاملة، نموذج ينتفع به أهله، ويقلده غيرهم، وليس المقام هنا مقام تفصيل.

ب - **الإنسان بطبعه يألف ما حوله من قيم وعادات ونظم وأشياء،** وتؤدي تلك الألفة إلى نوع من أنواع الاندماج مع كل ذلك، وبذلك الاندماج تهجع الروح، ويصاب العقل بالتبلد حيث يسود التقليد وتكرار الأخطاء. مهمة النقد هي كسر تلك الألفة وتنبيه الناس إلى أن من عاداتهم ما هو سيئ يجب التمرد عليه، وإلى أن النظم المختلفة مشوبة دائمًا بالقصور، وتحتاج إلى تجديد بحسب ما يستجد من ظروف وأوضاع، وتنبيههم كذلك إلى أن للأفكار التي لديهم مدة صلاحية محدودة، وبعدها يصيبها التقادم، ولا بد من إبداع أفكار جديدة. إن النقد باختصار يحصِّن الوعي من الغفلة ومن الانحراف عن الطريق الصحيح في آن واحد.

ج - **نحن لسنا في حاجة إلى النقد التاريخي فحسب،** وإنما نحتاج إلى الفكاك من المنطق والطرح الفكري والإصلاحي اللذين كانا سائدين في الماضي، ولا أعني أن كل ما يقال كان خاطئًا، فهذا لا يقول به عاقل، وإنما أعني ضرورة تحرير المنطق والتفكير المنهجي الحالي وقطع استمراريته، وهذه المهمة شاقة جدًّا بسبب اندفاع الناس من غير وعي إلى قياس الحاضر على الماضي، وعلى سبيل المثال فإن الناس قبل نصف قرن كانوا يأملون بتوحيد عموم المسلمين فيما يشبه الإمبراطورية، لكن هذا اليوم قد تغير؛ حيث صار المأمول هو التنسيق والتعاون والتكامل، وهذا التغيير في الطرح بسبب الوعي باستحالة التوحد الكامل، ولو عدنا أيضًا نصف قرن إلى الوراء لوجدنا أن معظم الناس كانوا غير مستعدين لإنفاق الكثير من المال على تعليم أبنائهم، لكن هذا اليوم قد اختلف اختلافًا كبيرًا، وكما كان الناس في الماضي يركزون على شخصية القائد السياسي والإداري، وما يتمتع به من صفات فذة، واليوم يتم التركيز على الدستور والنظم والمؤسسات التي توجه حركة المسؤولين، وتكتنفها وهكذا.. الوعي الجديد هو وليد الخبرة المتراكمة والنقد المتواصل للظواهر المختلفة.

### ١٠ - اختلاف من غير اقتتال:

شيء طبيعي أن يختلف الناس في الكثير من الأمور، ولكن مهما بلغ الخلاف والاختلاف فينبغي التحرز من إراقة الدماء؛ إذ إن الاقتتال بين أبناء الوطن الواحد

والملة الواحدة شيء غير مقبول في نظر الشريعة الغراء، وهو دليل على الانغماس في التخلف والانحطاط. أنا لا أجد في الدلالة على حرمة الدماء أبلغ من قول اللّٰه تعالى: ﴿ مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا ﴾ [ المائدة: ٣ ]. ومن قوله ﷺ: « **لا يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دمًا حرامًا** »(١). وقوله ﷺ: « **لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم** »(٢).

الاقتتال بين الناس قد يعود إلى التهاون في إقامة القصاص، وقد يعود إلى تضييع الدماء والحقوق بسبب الفساد والرشوة والظلم والقهر والاستبداد، وقد يعود إلى الارتباك في إدارة المجتمع بسبب ضعف الأجهزة الإدارية أو بسبب عدم الفصل بين السلطات.. ولا تنس شيئًا مهمًّا للغاية هو الفكر الغالي الذي يدفع بأصحابه إلى استسهال تكفير المسلمين، وحين يتم تكفير شخص مسلم، فإن قتله يصبح أسهل من شرب الماء!

بعض الناس نشؤوا في بلاد لم تُحكم شعوبها بالإسلام منذ قرون، ويريدون اليوم تطبيق أحكام الشريعة فيها عن طريق استخدام القوة، وهم لا يعترفون بشيء اسمه ( فقه التدرج ) أو ( الموازنة بين المصالح والمفاسد ) أو ( فقه الأولويات ) إنهم يعودون إلى بعض النصوص الواردة في بسط سلطان الإسلام في الأرض والمجتمع ويهملون بعضها الآخر، وهم لا يحفلون بقول أصوليي علماء الأمة وفقهائها، ويتهمون علماء عصرهم بمداهنة الحكام.. هؤلاء الناس أساؤوا إلى سمعة الإسلام العالمية، وجعلوا كثيرًا من الشعوب الإسلامية ينظرون إلى أسلمة المجتمع على أنها مرادفة للقهر والكبت والإكراه!

من المهم أن يكون لدينا وضعية حقوقية وسياسية وأخلاقية تجعل من قتل الناس أمرًا لا يمكن التفكير فيه، وقد استطاعت الدول المتقدمة إنجاز ذلك بكفاءة ظاهرة على حين ما زال العديد من بلاد المسلمين مضطربًا وحائرًا في اختيار الطريق الذي ينبغي أن يسلكه إلى الإصلاح والنهضة!

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه الترمذي.

إن النهضة تحتاج أكثر ما تحتاج إلى بيئة يسودها السلام والاستقرار وصون الدماء والحقوق، وإلى أن تتوفر تلك البيئة فإن التخلف والتشرذم يظلان مهيمنين على الحياة العامة.

### ١١ - المبادرات المتعددة:

حين نواجه مشكلة كبرى فإن أول ما يخطر في بالنا هو اتخاذ قرارات كبرى وتوقيع عقوبات صارمة، ثم نكتشف بعد مدة أن المشكلة تضخمت، أو نكتشف أن ما أنجزناه قليل ومحدود، والسبب في هذا هو أن الظواهر الكبرى لا تنشأ في العادة لوجود سبب أو سببين، فالواقع يدل على أن الظاهرة الواحدة قد تكون نتيجة وجود عشرة أسباب أو أكثر، وما دام الأمر كذلك، فإن من المنطق أن نوجد حلولًا ومبادرات متعددة يعالج كل واحد منها سببًا من أسباب الظاهرة، وهذه الفكرة حديثة نسبية، لكنها فعالة للغاية، فالمبادرات الصغيرة حين تستهدف شيئًا محددًا تساعد على تشغيل عدد كبير من الناس، كما أن الآثار السلبية التي تنشأ عن المعالجة تكون موزعة على العديد من الأطراف والجهات، وهذا شيء عادل وجيد.

### مكافحة التدخين نموذجًا:

التدخين واحد من المشكلات الكبرى التي تعاني منها البشرية، والأموال التي يتم إنفاقها عليه هائلة بكل ما تعنيه الكلمة، وتفيد إحدى الدراسات أن ما ينفقه (المغاربة) على التبغ يزيد على ما ينفقونه على الدواء، وما يتم إنتاجه سنويًا من السجائر يتجاوز ثلاثمئة مليار سيجارة، هذا غير التبغ الذي يستهلك في الشيشة وغيرها، وتفيد دراسة أخرى أن العالم ينفق على علاج أمراض يسببها التدخين ما يصل إلى خمسمئة مليار دولار سنويًا! العالم الإسلامي يستهلك مثل ما تستهلكه الشعوب الأخرى من التبغ - وأحيانًا أكثر - مما يدل على أن الفتاوى الصادرة بحرمة التدخين، وما يقال من أنه من الخبائث لم تؤثر كثيرًا في سلوك كثير من المسلمين.

في السنوات العشرين الماضية استيقظ وعي كثير من الناس حيال خطورة هذه الآفة، ولـمَ لا والتبغ هو القاتل الأول في العالم، حيث تفيد دراسة طبية أن الأمراض الأشد فتكًا بالإنسان ثمانية، منها ستة على علاقة بالتدخين!

### ما العمل؟

في مشكلة مزعجة وخطيرة كهذه المشكلة علينا إطلاق عدد كبير من المبادرات

والحلول المركَّبة، لعل منها الآتي:

١ - لمنظمة الصحة العالمية برامج ومبادرات في مكافحة التدخين، ومن المهم التجاوب معها والمشاركة فيها.

٢ - مكافحة التجارة غير المشروعة بالتبغ حيث يتم التهرب من الضرائب، مما يؤدي إلى هبوط الأسعار والإقبال أكثر من الفقراء على المزيد من الاستهلاك.

٣ - تقديم الدعم المالي لزارعي التبغ حتى يتحولوا عن زراعته إلى غيرها.

٤ - منع بيع التبغ لمن هم دون سن الثامنة عشرة، ومنع مَن دون هذه السن من ممارسة بيعه.

٥ - فرض المزيد من الضرائب على استيراد التبغ.

٦ - منع التدخين في أماكن العمل والجامعات والمدارس والمطارات والطائرات وكل الأماكن المغلقة.

٧ - حظر الإعلان عن التبغ والترويج له.

٨ - إلزام الشركات الصانعة بوضع إعلان على علبة السجائر يحذر من ضرر التدخين يشغل مساحة ( ٣٠٪ ) منها.

٩ - منع كتابة العبارات المضللة على علب التدخين مثل ( خفيفة ) أو قليلة القطران.

١٠ - تقييم ما يترتب على التدخين من مشكلات صحية واجتماعية واقتصادية، ونشر الأرقام المتعلقة بذلك في وسائل الإعلام.

١١ - توعية المواطنين من أضرار التدخين السلبي، وإيجاد تشريع يوفر الحماية لغير المدخنين.

١٢ - حث شركات التأمين على رفع تكلفة التأمين على الأشخاص المدخنين.

١٣ - تقديم جوائز مجزية لكل الجهات والمؤسسات التي قامت بحملات لمكافحة التدخين.

١٤ - تخصيص بعض الدروس في المناهج المدرسية للتوعية بأضرار التدخين.

١٥ - تنشيط الدعاية ضد التدخين بكل الوسائل المتاحة.

١٦ - تدريب المزيد من الشباب على تنظيم حملات توعوية بأضرار التدخين.

١٧ - تخصيص ربع في المئة من أرباح الشركات للمساعدة في معالجة المدمنين على التدخين وفتح المزيد من عيادات المعالجة.

١٨ - إلزام الشركات وكل مؤسسات القطاع الخاص والعام بإعلام كل المتقدمين للوظائف بأنهم يمنحون الأولوية في التوظيف لغير المدخنين، ويجب أن يكون هذا مؤكدًا وواضحًا في القطاع الصحي.

١٩ - وضع عبارات تنفر من التدخين على الحقائب المدرسية وعلى بعض القمصان.

٢٠ - تشجيع نجوم المجتمع من رياضيين وفنانين ورجال أعمال.. من غير المدخنين على الإفصاح في المقابلات الشخصية على التلفاز وغيره بأنهم لا يدخنون.

٢١ - قيام الأطباء بتنبيه المرأة الحامل إلى الضرر الذي يلحق بها وبطفلها بسبب التدخين.

٢٢ - قيام الشركات الغذائية بإجراء خصومات يسيرة على أسعار المواد التي يتم بيعها لبقالات ومتاجر تمتنع عن بيع الدخان.

٢٣ - قيام مراكز الأحياء والتنمية الأسرية بتوعية الأهالي بمخاطر التدخين.

٢٤ - إقامة الدعاوى القضائية على شركات التبغ بسبب ما يسببه التدخين من أمراض خطرة في بعض الوقائع والحالات.

هذه المبادرات غير منظمة، ولا مستوفية لكل ما يمكن القيام به، وسيكون في إمكاننا القيام بمثلها أو بما هو أكثر منها تجاه كثير من المشكلات، مثل: التسرب من المدارس والبطالة والتهاون في صلاة الجماعة، والإعراض عن القراءة والسهر الطويل والتأخر في الذهاب إلى العمل عن الوقت المحدد، وضعف التواصل بين الأرحام والإسراف في استخدام الماء والكهرباء...

### ١٢ - تمكين الشباب:

لو رجعنا إلى التاريخ لوجدنا أن الشباب يُذكرون في الغالب في معرض القوة ومعرض الطيش وضعف الإدراك، ولو عدنا إلى ما قبل ثورات الربيع العربي بقليل

لوجدنا أن نظرة أمثالنا للجيل الجديد تقوم على اليأس منه بسبب انهماكه في رعاية شؤونه وتماديه في لهوه بعيدًا عن أي اهتمام بمصير بلده ومستقبل أمته، لكن الأمر قد تغير الآن على نحو كلي؛ حيث إن الشباب العربي أبدى من النضج والحسّ القيادي والقدرة على البذل والتضحية ما فاجأ العالم؛ ولذا فإني أستطيع القول: إننا فعلًا قد اكتشفنا أن لدينا كنوزًا من الرجال الأفذاذ، وقد آن الأوان لإشراك الشباب في وضع خطط التنمية والإشراف على تنفيذها، وإن استخدامي لمصطلح ( تمكين الشباب ) يشير إلى ما يمكن أن نقوم به من إزالة العقبات التي تحول دون تقدم الشباب إلى الصف الأول، كما يشير إلى أهمية تأهيلهم لذلك، فكيف يمكن أن يتم هذا؟

أ - **الثقة بالشباب وبقدرتهم على إنجازات تقترب من إنجازات الشيوخ**، أو تزيد عليها، وذلك يقوم على أساس أن عصرنا هو عصر الإدارة والاتصال والمعارف الحديثة والمتقدمة، ونجد في هذا السياق أن كثيرين من أبنائنا درسوا في جامعات أفضل من الجامعات التي درسنا فيها، وهم يستخدمون التقنية ووسائل الاتصال على نحو أفضل بكثير مما نفعله، ولدى الشباب قدرة على العطاء المتواصل أفضل مما لدينا، وهم قادرون على العمل ضمن فريق على نحو جميل، وذلك بسبب عدم وجود عقابيل تاريخية في نفوسهم، وعدم وجود ذكريات فشل كثيرة في عقولهم؛ لهذا كله وأمور أخرى فإني أقول: ثقوا بالشباب وساعدوهم على أخذ دورهم ومكانتهم في الحياة العامة، وأنا هنا لا أقول: إن كل شاب مؤهل لذلك، لكن أقول: المؤهلون من الشباب كثيرون، لكنهم ينتظرون من يُخلي لهم الطريق، ويمنحهم الفرصة.

ب - **لعل الخطوة العملية الأولى في تمكين الشباب تكمن في أن يقوم الشباب في كل دولة بإيجاد ( قاعدة بيانات ) وتأسيس بنك للمعلومات حول ما يتوفر من كفاءات شبابية في كل مجال من المجالات**، حتى يتمكن المسؤولون وصانعو القرار من الاستفادة من الإمكانات الشبابية على أفضل وجه ممكن، ويمكن للجامعات أن ترعى ذلك، وتدعمه.

ج - **تدريب الشباب على الأعمال القيادية من أهم ما يمكن الإسهام به في تمكينهم**، ومن المألوف في بعض الدول المتقدمة أن يدير طالب نابه في مدرسة ثانوية مدرسته يومًا كاملًا، وتكون قراراته وتوجيهاته في ذلك اليوم نافذة وواجبة الطاعة على

الجميع، ويمكن تطبيق ذلك في المصانع والشركات والدوائر الحكومية.. إن إتاحة الفرصة أمام الشباب لمثل هذه الممارسة تساعدهم على اكتشاف أنفسهم، وقدراتهم، وتعزز ثقتهم بها، وتفتح أمامهم آفاقًا جديدة.

د – **من صور تمكين الشباب إسناد بعض الوظائف المهمة للمتفوقين منهم**؛ حيث إني لا أرى مانعًا من أن يكون ابن الثلاثين وكيلًا لإحدى الوزارات أو عضوًا في المجلس البلدي أو رئيسًا لإحدى اللجان الوطنية الكبرى... ما دام يملك الأهلية للقيام بذلك. إن علينا أن نتخلص من الفكرة القائلة: الأقدم دائمًا هو الأفضل، فهذا غير صحيح في الحقيقة، والواقع يكذبه.

هـ – **كثير من الشباب يملكون الحس التجاري والكفاءة المطلوبة لإدارة مشروعات ناجحة، لكنهم في حاجة إلى شيء واحد هو ( المال ) ومن ثم فإني آمل أن يكون لدينا بنك خيري لإقراض الشباب ومساعدتهم على إقامة مشروعات صغيرة يحققون من خلالها آمالهم وطموحاتهم**، وينمون مهاراتهم، وينفعون بلادهم ومجتمعهم، وإن في الإمكان دائمًا إيجاد هيئة مالية ائتمانية يقوم الموسرون بإيداع جزء من ثرواتهم لديها، وتقوم هي بإقراضها للشباب في إطار شروط وضمانات محددة، بما يحقق الفائدة للمقرضين والمقترضين.

تمكين الشباب يبدأ باحترام أسرهم لآرائهم ومواهبهم، وذلك يبدأ في مرحلة الطفولة المبكرة، وهذا ما نحتاج إليه اليوم على نحو ملحّ؛ حيث إن كثيرًا من الأسر لا تلقي بالًا لمثل هذه المعاني!. الحديث عن فكر النهضة طويل وطويل، وحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق.

* * *

## متطلبات عامة

الهاجس الذي يسيطر على كل كاتب يكمن في كيفية إيصال رسالته للقارئ بشكل واضح، وعلى نحو وافٍ، وإن مسألة النهضة والمشروعات والأفكار المطروحة من أجل تحقيقها من أكثر المسائل تعقيدًا بسبب كثرة الاعتبارات والمعطيات التي يجب أخذها بالحسبان عند معالجتها، فالناس حين يقرؤون في هذه القضية الخطيرة يقرؤون باهتمام بالغ؛ لأنها تمس حياتهم الخاصة، لكنهم يظلون مشتتين بين الحاضر والماضي والمستقبل، وبين المحلي والعالمي، وبين تجارب النجاح وذكريات الفشل... مما يبدد طاقتهم الذهنية على الاستيعاب والتفاعل، ومن هنا كان لا بد من وضع النقاط على الحروف في الأمور المشار إليها وأخرى معها، لعلنا نستطيع التواصل مع القارئ على أفضل وجه ممكن:

### ١ - نظرة إلى الوراء:

شيد المسلمون حضارة زاهية ترسخت أسسها في قرن، ووصلت إلى ذروتها في أربعة قرون، وظلت تقاوم عوامل الفناء ثمانية قرون على الأقل. بعض علماء تاريخ الحضارات يقدرون استمرار تفوق الحضارة العربية الإسلامية حتى نهاية القرن الثاني عشر الميلادي، وفي القرن الخامس عشر ظهر بوضوح تفوق ما نسميه اليوم بالحضارة الغربية، وبما أن البحث في بدايات الحضارات ونهاياتها يجب أن يظل موضع شك واجتهاد، فإن علينا أن نتعامل مع كل ما يقال في هذا الشأن على أنه مؤشرات عامة ليس أكثر.

وإذا تساءلنا عن أشد ما فتك بالحضارة الإسلامية أمكننا أن نشير إلى الآتي:

- **كان هناك ارتباط في الوضعية السياسية والإدارية بحجم كبير جدًّا**، ومع غياب الشورى وصعوبة التواصل بين أجزاء الدولة صارت المسوغات لقيام القلاقل والثورات متوفرة؛ ولهذا فإن عدم الاستقرار كاد يشكل سمة عامة من سمات تاريخنا السياسي عبر قرون متطاولة.

- **انتشار الجهل والأمية وتراجع دور المؤسسات العلمية والتعليمية في تثقيف الناس والارتقاء بهم**، وهذا مرتبط على نحوٍ ما بانعدام الاستقرار وضعف التمويل.

- **تحلل أخلاقي واسع النطاق،** سببه الفقر والجهل وفقد المسلمين للطاقة الروحية المطلوبة لاستقامة السلوك وتهذيب النفوس.

- **انعدام الأمن في كثير من المناطق بسبب ضعف الحكومات والسلطات القائمة وفساد كثير منها،** مما أدى إلى تراجع في النشاط التجاري والاستثماري.

- **كوارث طبيعية؛** مثل الأمراض الفتاكة والمجاعات والاضطراب في إمدادات الغذاء... عملت على نقص عدد السكان، مما أدى إلى تراجع الطلب وركود الاقتصاد.

- **غزو أجنبي وحملات عدوانية من الدول المحيطة بالممالك الإسلامية،** أدت إلى استنزاف كثير من إمكانات المسلمين، وشغلتهم عن البناء والتقدم.

هذا بعض ما أصاب المسلمين، وبعض ما أدى إلى تدهور أوضاعهم العامة، والدرس الذي نستفيده من كل ذلك هو أنك حتى تحافظ على مكتسباتك الحضارية، وحتى تمضي قدمًا في طريق النهضة، فإنك في حاجة إلى استقرار وأمن واستثمار وفير من أجل إيجاد فرص عمل للأجيال الجديدة مع نظام سياسي يُشعر الناس بأنهم يشاركون في إدارة شؤونهم، وبحاجة مع هذا وذاك إلى شريحة واسعة تعمل على هداية الناس ومساعدتهم في مجالات الحياة كافة.

### ٢ - واقع ثري معقد وغير مستقر:

العالم من حولنا بكل أبعاده وتفاصيله هو الإطار الذي يكتنف كل جهودنا، ونحن شئنا أم أبينا ملزمون بالتفاعل مع ذلك الإطار؛ بسبب التواصل العالمي غير المسبوق؛ وبسبب تشابك المصالح بين مشارق الأرض ومغاربها، ونحن نلاحظ للوضع العالمي الحالي أربعة أبعاد جديدة وخطيرة هي:

أ - **التقدم المعرفي والتقني الهائل،** وقد أتاحت إمكانية التعلم والتدرب عن بُعد ثروة معرفية هائلة لكل الناس، وقد صار في إمكانية كل ذي طموح أن يتعلم ويترقى بتكاليف زهيدة، كما أن وجود التواصل ونقل المعلومات عبر ( النت ) من الأمور التي أتاحت للكثير من الناس أن يعملوا وهم في بيوتهم، و قد صار من المألوف أن تؤخذ صورة لمريض في أمريكا، ويكتب عنها تقرير في الهند!

ب - **عالم اليوم هو عالم الصراع والتنافس المكشوف من غير أي رحمة أو أخذ لأي**

اعتبار، وإن على الشعوب الإسلامية أن تتسلح بالمعرفة المتقدمة والتنظيم الجيد، وأن تعلِّم أبناءها تعليمًا ممتازًا، مع تدريبهم على العيش الخشن، وإلا فإنهم قد يجدون أنفسهم يومًا ما عاجزين عن كسب رزقهم وهم في بلدهم.

إن التنافس في عالم الأعمال يدفع باستمرار نحو التخفيض في تكلفة المنتجات، وهذا سيجعل رجال الأعمال يؤثرون العمالة الوافدة على أبناء بلدهم إذا كانت مهاراتها أفضل وأجورها أقل، ومن لم ينتبه إلى هذه الحقيقة، فإن عليه الاستعداد لدفع ثمن باهظ لذلك.

**ج- عالم اليوم هو عالم المفاجآت والتحولات الكبرى التي تحتاج إلى استعداد عظيم،** إننا لا نستطيع أن نركن إلى أي إنجاز ننجزه، ولا أن نستأنس بأي وضعية ارتحنا فيها، إنه عالم انعدام اليقين وغموض المستقبل، وأفضل استعداد يمكن أن نقوم به هو المشاركة في الإنجازات والإبداعات الجديدة من خلال الاستثمار في المعارف المتقدمة وإقامة العلاقات الواسعة مع القوى النافذة في عالم المال والأعمال والتقنية.

إن أزمة الرهن العقاري في أمريكا خيمت على كل أسواق العالم، ودفعت باتجاه الكساد، وإن أزمة الديون في اليونان كادت تسحب كل الاتحاد الأوروبي إلى وضعية مالية سيئة، وإن الإبداعات والاختراعات التي يتم تسجيلها كل يوم في الأرض قد ترفع أسهم أمم لديها أراضٍ خصبة، أو تقع على المحيطات، وقد تؤدي إلى مشكلات لمنتجي مادة من المواد، ولنا على سبيل المثال أن نتساءل: ماذا لو وجدت طرق غير مكلفة لتحلية المياه المالحة، أو وجد بديل للنفط في تسيير المركبات؟ إن أسعاره سوف تهبط، بسبب زيادة العرض على الطلب، وقد تقع الدول المنتجة له في أزمة خانقة... لهذا كله فإن كثيرًا من الخطط البعيدة المدى قد يكون مخيبًا للآمال بسبب تغير الظروف والمعطيات، فما له قيمة كبرى اليوم قد لا تكون له أي قيمة بعد ثلاثين سنة وهكذا..

### ٣ - القليل من الكلام مع الكثير من العمل:

النهضة في جوهرها عبارة عن تغيير نحو الأفضل، وحين ينهض شعب من الشعوب، فإن كل فرد من أفراد ذلك الشعب يشعر بشيء من التحسن في حياته الشخصية، المشكل أن القيادات السياسية أدمنت إعطاء الكثير من الوعود خلال

الحملات الانتخابية، من أجل كسب أصوات الناخبين، وهم يعلمون أن معظم تلك الوعود غير قابل للتحقق، لهذا فإن الأمة تنتقل من إحباط إلى إحباط إلى أن فقدت الثقة بالطبقة السياسية.

النهضة عمل صامت منظم وشامل، وإن تحسين الاقتصاد والخدمات العامة هما جوهر ذلك العمل، إن رفع مستوى الدخل وتخفيض مستوى البطالة، وتوفير إمدادات الماء والكهرباء على نحو جيد، بالإضافة إلى توفير مؤسسات تعليمية وطبية جيدة، إن هذا هو ما تنتظره الشعوب من حكوماتها هذه الأيام. وقد قال أحد الزعماء السياسيين المعاصرين: ( أعط الشعب كرامته وأمِّن له رغيف الخبز، ثم خذ منه ما تشاء ) وهذا صحيح. إن كل الشعارات المرفوعة، وكل الكلام المعسول الذي يطلقه هذا الزعيم أو ذاك يظل قابلًا للتأويل والجدل، وإن النتائج الملموسة والتغيرات العملية وحدها هي التي لا تقبل أي تأويل، وهذا ما على القادة التركيز عليه.

### ٤ - الأساس الأخلاقي:

كل المعالجات السياسية والاجتماعية والاقتصادية تفتقر في نجاحها ونجاعتها إلى القيام على أساس أخلاقي واضح. الأساس الأخلاقي يعني توفر صفات جوهرية؛ مثل الصدق والأمانة والعدل ومعاملة الناس على أساس قيم واحدة، ومساعدة العناصر الضعيفة، ومحاربة العنصرية والتعصب وكل ما يفرق بين الناس ويحولهم إلى شركاء متشاكسين، أما الاستقامة في الوظيفة وأداء العمل، إلى جانب نفع العباد والبلاد، فإنهما خطان واضحان للفصل بين المواطن الجيد والمواطن السيئ.

### ٥ - الموازنة بين الواقع المحلي والواقع العالمي:

هذه قضية في غاية الأهمية، ورعايتها والإشراف على تنفيذها من اختصاص الحكومات في الأساس. هناك حقيقة يجب عدم غض الطرف عنها، وهي أن كل المسائل السياسية والاجتماعية والاقتصادية الكبرى محكومة بثلاثة أبعاد: البعد المحلي، البعد الإقليمي، البعد العالمي، ولا يصح غض الطرف عن أي منها: لدينا فئة من الناس لديها حس قومي مرتفع وحساسية وطنية عالية؛ ولهذا فهم ميالون إلى الانطواء على الذات وإغلاق أبواب الاستثمار والنفع المتبادل أمام الأجانب بحجة أنهم في يوم من الأيام قتلوا آباءنا، ونهبوا خيرات بلادنا، ولدى هؤلاء اعتزاز مبالغ فيه بالانتماء والتاريخ الوطني والقومي...

إلى جانب هذا الفريق هناك فريق آخر يرى أنه ليس لدينا ما ينبغي الخوف عليه؛ ولهذا فإنهم يدعون إلى الاندماج في سوق العولمة والنظر في التعامل مع الآخرين إلى المصالح المادية فقط. المطلوب حقيقةً نوع من الموازنة بين الداخل والخارج، وهذه الموازنة يجب أن تقوم على التعاون والتكامل واحترام الخصوصيات، والحرص من قبل البلدان النامية على الوقوف في موقف التلميذ الذكي الذي يتعلم من غيره، ثم يعكف على تطوير وتفعيل ما تعلَّمه، ثم ينتقل إلى طور المعلم الذي يتتلمذ عليه الآخرون.

### ٦ - البيئة الذهبية:

البنية العقلية والنفسية للإنسان هشة جدًّا؛ ولهذا فإنه في الغالب يخضع للمسلَّمات والأفكار والنظم السائدة في بيئته، وأستطيع أن أقول دون تردد: إن ما لا يقل عن ( ٦٠٪ ) من نجاحاتنا وإخفاقاتنا يعود إلى البيئة التي نعيش فيها، وقد صار واضحًا أن من أكثر ما يؤثر في حياتنا شيئين: مكان السكن ومكان العمل، ومن هنا فإن النهضة هي في جوهرها ارتقاء بالبيئة و شروط العيش والعمل والتواصل. الإنسان قادر على التكيف مع أصعب البيئات، لكن ذلك التكيف يساعده على البقاء حيًّا، ليس أكثر، أما إذا أردنا للإنسان أن يتفوق، ويبدع ويحيا بكل إمكاناته، فإن علينا أن نوفر له البيئة التي تجعل ذلك سهلًا ممتعًا.

**أستطيع أن أقول: إن البيئات ثلاث:**

**أ - بيئة قاسية ومقفرة يشعر الإنسان تجاهها بالعجز واليأس حيث لا حول له، ولا طول،** تمامًا مثل الذي أُقفل عليه باب غرفة ضيقة، ليس فيها أي شيء من الأثاث، كيف يمكن له أن يعيش حياة طبيعية، بل كيف يمكن له أن يستمر على قيد الحياة؟! وكثيرًا ما تذكر بلاد ( الإسكيمو ) على أنها نموذج لذلك حيث الثلوج المستمرة. الإنسان هُزم هناك إذْ عجز عن تطوير بيئته، وعجز عن تقديم أي شيء للإنسانية من خلال إنجازاته، ولا يبعد عن بيئة الإسكيمو ما يواجهه الناس في بعض بلدان أفريقيا وآسيا من قلة ذات اليد وانعدام النصير..

والحقيقة المرة هي أن هناك مئات الملايين من الناس الذين عليهم أن يدبروا أمورهم بمورد مالي لا يزيد على دولارين في اليوم، ولهذا فإنهم دائمًا عرضة للمجاعات والأوبئة والاستغلال من قبل الشعوب القوية والنافذة.

ب - **بيئة الموارد الوفيرة والأمن والعيش السهل**، هذه البيئة تظل موضع طلب من قبل الجميع، وهي متوفرة اليوم لعدد محدود جدًّا من الناس، والمطلوب ممن أنعم اللَّه عليهم بالرخاء أن يترجموا البحبوحة الاقتصادية إلى ثقافة فكرية أخلاقية روحية تدفع في اتجاه المحافظة على الموارد وتنميتها من خلال التخطيط والاستثمار والعمل الذكي والجهد المتواصل، وإلا فإنهم قد يفقدون ما هم فيه من خير دون التأهل للتكيف مع الظروف الجديدة، تمامًا كما حصل للأفارقة حين كثر الناس وانتشر التصحر والجفاف، مع نضوب كثير من الموارد.

إذا كانت البيئة القاسية توحي للناس بعدم وجود أي فائدة من بذل الجهد، فإن البيئة الرخية المترفة توحي لهم بعدم وجود حاجة للتعب والعناء، وهكذا فإن النتيجة واحدة، وهي البطالة والفراغ والجمود!

ج - **البيئة الصحية**: هي البيئة التي تتحدى الإنسان، لكنها لا تعجزه؛ حيث التنظيم الجيد لسوق العمل وحيث البنية التحتية الملائمة، مع وجود فرص وطرق للتقدم في كل مجالات الحياة. عليك في البيئة الذهبية أن تتعلم وتعمل وتقتصد في الإنفاق، وتخطط لقادم الأيام، و ستجد ثمار ذلك في قضاء احتياجاتك والفوز بقسط من الرفاهية. إذن المعركة التي على الجميع أن يخوضوها هي تحسين ظروف العيش والعمل إلى درجة تجعل الناس متفائلين بجدوى المحاولة وبذل الجهد.

إن المتطلبات العامة كثيرة، ولعل ما ذكرته هو الأكثر أهمية.

* * *

# نهضة مجتمع

تدل الخبرة المتراكمة على أن الناس لا يُظهرون الكثير من الحماسة والكثير من التفاعل مع كل الطروحات التي تتحدث عن الشؤون الاجتماعية، وهذا يعود على ما يبدو إلى عدم الوعي بمدى تأثير البيئة الاجتماعية في حياتنا، أو إلى الشعور بعقم محاولات الإصلاح الاجتماعي..

أنا شخصيًّا أعتقد أن تحسين المناخ الاجتماعي يحتاج فعلًا إلى وقت طويل وجهد كثيف، لكن الآثار الإيجابية لذلك تستمر فترات طويلة، قد يمتد بعضها إلى عقود من الزمن، بل قرون.

إن الإنسان يولد ناقص الإنسانية، وبالعيش في أسرة وفي مجتمع يستكمل ذلك النقص، ويصبح بشرًا سويًّا، ونحن لا نبالغ إذا قلنا: إن الثقافة التي نكتسبها من مجتمعاتنا تشكل ما يشبه الطبيعة الثانية بالنسبة إلينا، بل إن نوعية تلك الثقافة تشكل فارقًا بين أمة وأمة وبين مجتمع ومجتمع آخر. الإنسان من غير الحياة الاجتماعية يكون خاويًا من العقائد والقيم ويكون أبكم لا ينطق، كما أنه لا يعرف شيئًا من معايير الخطأ والصواب، كما أنه لا يكاد يعرف شيئًا عن الخير والشر..

ومن الواضح أن تأثر الناس بمجتمعاتهم أكبر من أن نعبر عنه بالكلمات، ويكفي للدلالة على عظم ذلك التأثر ما نلاحظه من أن أكثر من ( ٩٩٪ ) ممن يولدون ويعيشون في مجتمع مسلم يكونون مسلمين، كما أن أكثر من ( ٩٩٪ ) ممن يولدون ويعيشون في مجتمع بوذي يكونون بوذيين وهكذا.. أضف إلى هذا أن بوجود ما نشاهده اليوم من مظاهر الحضارة مرتهن على نحو كامل بوجود مجتمع وعمل جماعي وتثقيف وتثاقف.

ويدل الكثير من الدراسات والمعلومات الموثقة على أن الأشخاص الذين يعيشون في عزلة عن الناس أو مجتمع صغير جدًّا يتألمون جسديًّا، ويتعرضون لعدد من الأمراض الخطيرة مثل الذبحة القلبية والقرحة وارتفاع ضغط الدم... وهم يتماثلون للشفاء حين يمرَّضون ببطء أكبر، ومن الناحية النفسية يظل المنعزلون أكثر عرضة للاكتئاب وفقدان احترام الذات مع ضعف بالشعور بالهوية الذاتية.

وقد لاحظ بعض الباحثين أن شعور المرء بالعزلة يجعل سلوكه عدوانيًّا، ويدفعه في اتجاه الانضمام إلى العصابات الإجرامية، كما أن العزلة تجعل الإنسان عصبيًّا وأنانيًّا.. إن الإنسان يمكن أن يبقى حيًّا من غير العيش في مجتمع، لكن يظل عاجزًا عن أن يصبح إنسانًا يعمل على نحو كامل. الأفكار التي يمكن أن تناقشها من أجل النهوض بالمجتمع كثيرة وكثيرة جدًّا؛ ولهذا فإني سأوجز هنا ما أعده شديد الأهمية، وذلك عبر المفردات الآتية:

### مواجهة مخاطر التحديث:

التقدم الحضاري الذي نشهده اليوم شيء لا يمكن إيقافه، على الرغم من الأعراض الجانبية السيئة التي نشاهدها هنا وهناك، كما أن علينا أن نقول أيضًا: إن من غير المقبول إطلاق القول بأن الماضي كان أجمل وأفضل، فالصحيح أن الناس في كل مراحل وجودهم كانوا يعانون من بعض الاختلالات الاجتماعية، لكن إذا نظرنا إلى التماسك الاجتماعي على أنه فضيلة من أعظم فضائل الإنسانية، فإننا نستطيع القول : إن مجتمعاتنا في الماضي كانت أكثر تراحمًا وأشد تواصلًا، وهذا يعود في الأساس إلى أن معظم الناس كانوا يعيشون في بيئات ضيقة؛ ولهذا فقد كانوا على اطلاع تام على الصعوبات التي يمر بها الأهل والجيران... مما يدعوهم إلى التعاطف المشترك والمتبادل، أضف إلى هذا أن الفقر والعيش على حد الكفاف كان هو السمة العامة لأكثر من ( ٨٠٪ ) من الناس، ونحن نعرف أن ثقافة الغنى تقوم على العزلة وتوسيع دائرة الخصوصية، على حين أن ثقافة الفقر تقوم على المشاركة والمعاونة والبساطة في العلاقات..

التحديث الذي تشهده مجتمعاتنا هو باعتبارٍ ما امتداد للتحديث الذي شهده الغرب عبر القرنين الماضيين، مع الأخذ بعين الاعتبار ما يمنحنا إياه الإيمان بالمنهج الرباني الأقوم من الشعور بالخصوصية، وما يقدمه لنا من قدرة على الممانعة والمقاومة لعوامل تفتيت المجتمع وتفكيك مؤسساته الكبرى، لكن بما أن الوعي بذلك المنهج والالتزام به من جملة الأمور التي نشكو منها على نحو مستمر، فإن لنا أن نتوقع وجود تقليد واضح لحياة الغرب لدى الكثير من أبنائنا وبناتنا.

ولعل أهم مخاطر التحديث على وحدة المجتمعات تتجلى في الآتي:

١ - **الحداثة جعلت الناس أكثر وعيًا بمصالحهم الخاصة**، كما أنها جعلت حرصهم على نيل حقوقهم أكبر، وهكذا تنمو الروح الفردية على نحو مُشَوَّه؛ حيث صار كثير من الناس يرون أن من حقهم قول ما يريدون وفعل ما يحلو لهم من غير أي اكتراث تجاه الموقف الاجتماعي من ذلك، وقد صرنا نسمع من كُتاب ومثقفين، كما نسمع من فتيان ومراهقين عبارات تدل على الهرطقة والإلحاد والرغبة في إبراز بعض السلوكيات الشخصية التي يستنكرها الذوق الاجتماعي أشد الاستنكار مثل التعري الكامل الذي قامت به بعض الفتيات احتجاجًا على حدث معين..

إن الجماعية تعني: خفوت صوت الفرد من أجل الانسجام مع العرف الاجتماعي السائد، لكن الحداثة تحارب العرف والتقاليد، وتنتصر للفردية بكل أشكالها!

٢ - **ساعدت الحداثة على نحو واضح على تحلل الأسرة، بل على انكماشها وتضاؤلها؛** حيث زادت معدلات الطلاق، وكثرت أشكال المنازعات بين الزوجين، كما أن حالات الخيانة الزوجية في تزايد مستمر في عدد من المجتمعات بسبب الاختلاط في أماكن العمل وفي غيرها، وبسبب السعار الجنسي الناشئ من رؤية المناظر الخليعة التي باتت متوفرة في كل مكان.. وقد دلت إحصائية حديثة في بريطانيا على تفوق نسبة العزَّاب على أعداد المتزوجين، مما ينذر بأوخم العواقب؛ حيث ظل الزواج على امتداد التاريخ صمام أمان من الجفاء الاجتماعي ومن انحراف السلوك الجنسي للرجال والنساء. ونحن نخشى من أن تتأثر مجتمعاتنا بذلك، ولا سيما أن كثيرًا من الشباب اليوم لا يجدون المنزل الذي يقيمون فيه عش الزوجية!!!

٣ - **قامت العولمة بعملية تفكيك منتظمة لكل السلطات الاجتماعية التقليدية،** ودمرت كثيرًا من الروابط التي كانت تمنح الاستقرار والتلاحم لكل أولئك الذين يعيشون في وطن واحد، وهكذا فقد تم إضعاف الشعور بالانتماء للأمة والوطن والأسرة والمدرسة، وتم تدمير كثير من مشاعر الاحترام التي كان يحملها الصغار نحو الكبار والأبناء والأحفاد نحو الآباء والأجداد!

٤ - **استيقظت في مجتمعاتنا المشاعر التي تفتت الشعور الوطني الجامع،** وتلك

المشاعر هي مشاعر الانتماء إلى مذهب أو عرق أو قومية معينة، وهكذا بتنا نسمع عن مطالبات حثيثة بالحكم الذاتي وبالانفصال عن الدولة الأم بحجج وذرائع مختلفة، وكل ذلك على حساب وحدة الوطن وتماسكه. هذه الوضعية ليس لها حل أو حلول كاملة، ولكن يمكن تحجيمها من خلال تنمية شعور المواطنة، ومن خلال الدعوة إلى الفضيلة ونشر قيم العدالة والإحسان، مع جهد خاص على صعيد العناية بالمراهقين والشباب وأمور من هذا القبيل، وهذا ما سنوضحه أكثر في الصفحات القادمة من هذا الكتاب بحول اللَّه وطَوْله.

**المجتمع المستهدف:**

أعتقد أن أكبر مشكلة تواجه المجتمعات الحديثة هي بلورة الصورة الذهنية التي يتمنى أبناؤها أن تتجسد في واقع عملي يلمسونه ويحيون فيه، وأرى أن المسلمين هم أقدر الناس على رسم تلك الصورة؛ وذلك لأن العقيدة الإسلامية بالإضافة إلى تعليمات الشريعة الغراء توضح على نحو جلي ملامح المجتمع المسلم المنشود، وهذه مقاربة سريعة لذلك:

**١ - مجتمع ملتزم:**

الصفة المتفق عليها والتي يمكن العمل من أجل صبغ كل حياتنا الاجتماعية بها هي ضبط إيقاع الحياة العامة على هدي الشريعة الغراء والسعي للقيام بأمر اللَّه تعالى في المنشط والمكره، وهذا ظاهر جدًّا في مقاصد الشريعة، وهو مدلول قول اللَّه تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [ الأنعام: ١٦٢، ١٦٣ ]. من الطبيعي أن يكون في المجتمع المسلم المقصرون والمفرطون، والمقصود دائمًا هو رفع نسبة الأخيار الممتازين على قدر الإمكان.

**٢ - مجتمع مزدهر:**

المجتمع المزدهر هو المجتمع المتقدم، وأظهر صفتين له هما: مستوى تعلم جيد واقتصاد نشط يوفر فرص العمل للأجيال الجديدة، ويساعد المواطنين على قضاء حاجاتهم بيسر وشيء من السهولة. الاقتصاد القوي يؤمن ما يتطلبه تشييد المؤسسات التعليمية وكل المرافق والبنى التحتية من أموال طائلة؛ ولهذا فإني أستطيع القول: إن تحسين الاقتصاد ودفع عجلة التنمية شيئان مهمان جدًّا لمجتمع متجانس ومستقر.

### ٣ - مجتمع متماسك:

التماسك الاجتماعي هو ذلك الترابط والتواصل الذي ينعم به المجتمع المتجانس والمستقر، وإن العوامل التي تساعد على التماسك الاجتماعي ليست كثيرة، ويأتي على رأسها في الحقيقة ( الثقافة ) بما تشتمل عليه من عقائد وأعراف وعادات ونظم، كما أن للتاريخ المشترك ووحدة الأهداف والمصالح أثرًا واضحًا في ذلك.

ومن المؤسف أن المجتمع كلما أغرق في الحياة المدنية أكثر ضعفت العلاقات الحميمة بين أفراده، وارتفعت درجة الاهتمام بالشأن الشخصي، كما أن سرعة التغير الثقافي بسبب وجود غزو ثقافي أجنبي أو بسبب احتكاك الثقافة المحلية بالثقافات الاجنبية - من الأسباب الأساسية في تفكيك المجتمع وإضعاف ترابطه.

إذن التماسك الاجتماعي هو تماسك ثقافي في المقام الأول، وينبغي للمهتمين بالسلامة الاجتماعية العمل على هذا، وتوفير ظروف تعظم القاسم الاجتماعي المشترك حتى يستطيع الناس تجاوز الولاءات الضيقة مثل القبلية والمذهبية والعرقية والمناطقية ...

### ٤ - مجتمع متكافل:

التكافل في الرؤية الإسلامية لا يقتصر على مساعدة الغني للفقير والقوي للضعيف، وإنما يقوم على مبدأ الولاية المتبادلة بين المؤمنين، كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ ﴾ [ التوبة: ٧١ ]. هذا التكافل يتجلى في الزكاة والصدقة والكفارات والنذور، كما يتجلى في تقديم النصح لكل من يحتاجه.

وتتخذ الدولة الحديثة من ( الضرائب ) وسيلة لبناء المرافق التي تستفيد منها العناصر الضعيفة في المجتمع، والضرائب التصاعدية تعمل على التقريب بين الطبقات حتى ينعم الجميع بخيرات البلاد على نحو مقبول، كما أن الدولة الحديثة تدعم المؤسسات الخيرية والبرامج التطوعية من أجل إشعار الفقراء والمحتاجين بأنهم ليسوا وحدهم في معركة الحياة، وكلما اتسعت الشريحة المهتمة بالشأن العام وكثرت الأموال المبذولة في أعمال البر برهن المجتمع أكثر على خيريته وصلاحه وتماسكه.

### الريادة الاجتماعية:

الخالق ﷻ وزع المواهب والاستعدادات والإمكانات على الأفراد بالتفاوت؛ ولهذا فإن هناك دائمًا من يملكون مؤهلات القيادة والريادة حتى في المجتمعات التي تغلب عليها الأمية، ونستطيع القول: إن نوعية الصفوة التي يملكها المجتمع تؤشر دائمًا إلى ما يمكن أن يكون عليه المجتمع في المستقبل، فإذا كانت تلك الصفوة معافاة من معظم الأمراض الأخلاقية والحضارية التي تفتك بعامة الناس، فإن لك أن تثق بقيام تلك الصفوة بتغيير الحال إلى الأفضل، لكن إذا كانت الصفوة تعاني من عين المشكلات التي يعاني منها الناس فإن نوافذ الرجاء في الإصلاح ستكون مغلقة أو ضيقة. وهذه بعض الأفكار في هذه القضية الحساسة:

**١ - يحاول كل مجتمع أن يجعل من الاندماج والتضامن الأساسَ الذي يحافظ من خلاله على كيانه**؛ ولهذا فإنه يحارب الأفكار والأشخاص والمواقف التي يشعر بأنها تكسر اتساقه الداخلي، ويتم هذا في العادة استنادًا إلى ضرورة احترام العادات والتقاليد السائدة، واستنادًا إلى ذكاء الآباء والأجداد والذين درجوا على الاعتزاز بتلك التقاليد.

الذاكرة الإنسانية تقف الموقف نفسه تجاه عمليات التفكير؛ إذ تخشى من أن تؤدي حصيلة النشاط الذهني إلى التشويش على الاتساق الداخلي لمحتوياتها المتعلقة بقضية من القضايا أو شأن من الشؤون. هذا يعني أن على الرواد أن يمتلكوا الشجاعة على نقد القولبة الاجتماعية للعقول والسلوكيات، وهذه الشجاعة هي التي ترتقي بالعالم إلى درجة مفكر.

إن من المؤسف أن المجتمعات تكتشف في أوقات الشدائد أن لديها الكثير من الأكاديميين وملقني المعرفة والقليل من القادة والمصلحين الذين يحملون همومها، وينخرطون في حل مشكلاتها!

**٢ - التفاوت بين وعي الفرد والوعي العام السائد في المجتمع هو مصدر التجديد في الحياة الاجتماعية؛ ولهذا فإن من أهم صفات الرواد أنهم يتركون مسافة بينهم وبين مجتمعاتهم من خلال منع وعيهم من الاندماج في الوعي الشعبي العام**، وهذا المنع هو الذي يمكنهم من نقد الأوضاع العامة، ومن طرح المبادرات والبرامج التي تحدث التغيير الاجتماعي المنشود.

المرء حين يغرد خارج السرب يصبح لدى بعض مواطنيه موضع استغراب وتساؤل، ويصبح لدى البعض الآخر موضع تشكيك واتهام، وهذا شيء طبيعي، وقد واجهه الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - وهو جزء من استحقاقات الريادة، المهم دائمًا هو الصمود، وعدم التراجع.

لا شك في أن النقد ينبغي أن يكون بناءً، وألا يوقع الناس في اليأس، بالإضافة إلى كونه لطيفًا وموضوعيًّا.

**٣ - لا تكمن الريادة في نقد المجتمع فحسب، بل لا بد إلى جانب ذلك من أن يكون الرائد صاحب مبادرات عملية في التغيير والإصلاح**، وهذه النقطة في غاية الأهمية؛ حيث إن الذين لا تعجبهم الأوضاع السائدة كثيرون جدًّا، لكن الذين يقدمون رؤى واضحة ومبلورة، للخروج من الأزمات، ويطرحون صيغًا ومشروعات عملية للإصلاح دائمًا قليلون!

والحقيقة أن كثيرًا من النخب لدينا يستسهلون الكلام ويستصعبون الكتابة، والذين يكتبون يجدون صعوبة في التنسيق مع زملائهم لتقديم شيء واضح ومتكامل.

إن الناس حين تلتف حبال الشدائد حول أعناقهم، وحين تلتبس عليهم السبل ينتظرون من الصفوة أن تصنع شيئًا، لكن صفوة المجتمع لا يشعرون في معظم الأحيان بما تشعر به الجماهير! لو رجعنا إلى التاريخ لوجدنا أن الكثير من المبادرات الصغيرة تحولت إلى أعمال عملاقة نفع اللّٰه بها الملايين من عباده.

**٤ - التفوق الذي نلمسه لدى الرواد مدين لأمرين**: المواهب والاستعدادات الفطرية ثم البيئة الثقافية التي نشؤوا فيها.

وإذا كانت حيلتنا تجاه الذكاء الفطري شبه معدومة، فإننا نستطيع فعل الكثير من أجل توفير حاضنات تربوية تكتشف القيادات الاجتماعية وتقوم بإعدادها على نحو جيد، وأعتقد أن ذلك يتطلب الآتي:

- تشجيع الأطفال والفتيان على ممارسة النقد وتقبله من الآخرين.
- الثقة بالنفس من خلال التدرب على بعض الأعمال القيادية.
- الشعور بالمسؤولية الاجتماعية.
- القدرة على العمل ضمن فريق.

- ثراء في الأفكار البناءة.
- الروح الإيجابية والتفاؤل.
- المبادرة والمغامرة المحسوبة.
- التدرب على حل المشكلات.
- القدرة على تحفيز الآخرين.
- التعود على التعبير عن الذات والتحدث أمام الآخرين.

بناء هذه السمات والتدريب عليها من مسؤولية الأسر أولًا، لكن بما أن معظم الأسر غير مؤهلة لذلك، فإن على المدارس والجماعات الدعوية والمحاضن التربوية والمؤسسات الخيرية القيام به من أجل توفير رواد يخدمون المجتمع في المستقبل.

**توسيع الطبقة الوسطى:**

هناك ما يشبه الإجماع من قبل جميع المهتمين بالشأن الاجتماعي والاقتصادي على أهمية توسيع الطبقة الوسطى لما لذلك من أهمية كبرى. ابتداءً يمكن القول: إن الطبقة الوسطى هي تلك الشريحة من الناس التي ترفعت على خط الفقر دون أن يكون لديها ثراء فاحش، كما هو شأن كبار الملاك ورجال الأعمال. الطبقة الوسطى هي طبقة المتعلمين وكبار الموظفين؛ مثل الأطباء والمهندسين وأساتذة الجامعات..

هذه الطبقة تخلصت من شرور الفقر الملهي عن اكتساب الفضائل والباعث على قتل الطموحات، كما أنها تخلصت من مشكلات الغنى المطغي الذي يجعل أصحابه منغمسين في جمع الثروة والتمتع بها؛ ولهذا فإن الطبقة الوسطى ظلت على مدار التاريخ مركز الإبداع، والتقدم الاجتماعي، وهي تكسب رزقها في العادة عن طريق حصيلتها المعرفية ورقيها الثقافي؛ ولهذا فهي تدبر أمور معيشتها على نحو حسن، كما أنها تُوجِدُ نوعًا من التوازن الاجتماعي، وتخفف من حدة الصراع الطبقي..

**السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو:**

**كيف يمكن توسيع الطبقة الوسطى؟**

الحقيقة أن توسيع دائرة الطبقة الوسطى يحتاج إلى إجراءات ثابتة وعلى المدى البعيد، ومن تلك الإجراءات الآتي:

١ - تحسين مستوى التعليم؛ لأن وجود متعلمين جيدين يساعد على عثورهم على فرص عمل جيد، مما يجعل الفقراء منهم يصعدون إلى الطبقة الوسطى، كما أن التعليم الجيد يمنحها الاستقرار والنمو.

٢ - مكافحة الفساد؛ حيث إن شريحة مهمة ممن يكوِّنون الطبقة العليا استطاعوا ذلك بسبب استشراء الفساد وضعف الرقابة الإدارية.

٣ - يمكن للضرائب التصاعدية وإصلاح سُلّم الأجور والرواتب أن يؤدي إلى الحد من الطبقة العليا وتوسيع الطبقة الوسطى.

٤ - برامج مكثفة لحل مشكلة الفقر؛ حيث إن ذلك يؤدي إلى تقليص الطبقة الفقيرة لصالح الطبقة الوسطى.

٥ - من المهم للقيام بكل ذلك العمل على تحديد مفهوم الطبقة الوسطى ثم توفير بيانات ومعلومات دقيقة عن الحراك الطبقي واتجاهاته، بالإضافة إلى مراقبة النتائج التي تتمخض عن الإجراءات التي أشرنا إليها، والعمل على تحسينها.

## إنعاش مفهوم المواطنة:

حب الإنسان لمسقط رأسه ومراتع صباه وموطن أهله وعشيرته فطري ومغروس في أعماق ذاته ووجدانه، وحين بلغ رسول اللَّه ﷺ أطراف مكة مهاجرًا ومكرَهًا على الخروج جاشت نفسه وقال ﷺ: « **ما أطيبك من بلد وأحبك إليَّ ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك** »(١)، وبعد مضي سنين عدة على هجرته يأتي إليه أصيِّل بن عبد اللَّه الغفاري قادمًا من مكة، فيسأله ﷺ: « **كيف تركت مكة يا أصيِّل؟** » فقال: تركتها حين ابيضت بطحاؤها، وأحجن ثمارها، وأغدق إذخرها وأمشر سلمها. فاغرورقت عينا النبي ﷺ وتحركت لواعج شوقه، وقال ﷺ: « **يا أصيل دع القلوب تقر** »(٢).

اليوم يُنظر إلى المواطنة على أنها أشبه بعقد اجتماعي يشتمل على واجبات المواطن وحقوقه، وقد دلت التجربة التاريخية على أن الناس لا يؤدون ما عليهم من واجبات إذا لم ينالوا ما لهم من حقوق، وأعتقد أن التثقيف الاجتماعي ينبغي أن يشتمل على هذه وتلك.

---

(١) رواه الترمذي.

(٢) ذكره الهندي في كنز العمال.

العدل والمشاركة والتواصل والتسامح والإحسان والشعور بالأمن من أهم ما يساعد الناس على الإحساس بأنهم ينتمون إلى وطن واحد، ولعل العدل والحرية والشورى من أهم ما يجب العمل عليه من أجل بناء قاسم مشترك يتجاوز التلوينات والانقسامات القبلية والعرقية والطائفية والمناطقية، وعلى مقدار ما ننجح في دعم الحس الوطني نتمكن من تجاوز تلك التنويعات، وحين نفشل في ذلك فإن ما أشرنا إليه يتحول إلى معاول هدم للمعنى العميق للمواطنة والوطنية.

الوطنية هي شعور بشرف الانتماء إلى الوطن، وهذا لا يكون من غير تمتع الوطن بجاذبية قوية للعيش فيه، وذلك من خلال النظم والقوانين الضامنة للحقوق، ومن خلال سلوك المواطنين القائم على البر والإحسان والتسامح والمعاونة، والحقيقة أن الوطن الجيد هو الذي يسكنه مواطنون جيدون، ومن هنا فإن الشعور بالانتماء الوطني هو انعكاس لخيرية المواطنين وقيامهم بواجباتهم الاجتماعية والحضارية.

التنوع نعمة، وحتى يظل كذلك فإن علينا تدعيم روح الوفاق الوطني من خلال القدرة على إيقاف خلافاتنا عند حدود معينة، وذلك برسم خطوط حمراء لا يصح تجاوزها تحت أي ظرف، فالعمل ضد المصلحة العليا للبلاد غير جائز مهما لقي المواطن من عسف وجور.

نحن في الحقيقة في حاجة إلى المواطن الفعال وهو المواطن الذي فرغ من حل مشكلاته الشخصية وترتيب أوضاعه الخاصة، ثم شرع في مساعدة مواطنيه والمساهمة في بناء المرافق العامة والعمل على الارتقاء بشؤون البلاد، وإيجاد هذا النوع من المواطنين من مسؤولية المؤسسات التربوية والتعليمية في الدرجة الأولى.

### مأسسة المجتمع:

هذه القضية في منتهى الأهمية والحيوية على صعيد النهوض بالمجتمع، بل على صعيد النهوض بالفرد قبل المجتمع؛ وذلك لأن المؤسسات التطوعية والخيرية تساعد على الارتقاء بالمنخرطين فيها على أن يكونوا بشرًا أسوياء؛ إذ تدفعهم إلى كبت نزواتهم وتجاوز حظوظ أنفسهم، والتمحور حول ذواتهم من خلال خدمة الآخرين، ونشر القيم النبيلة، والارتقاء بطموحات المجتمع نحو الحرية والعدالة والتضامن والاستقامة السلوكية.

والحقيقة أن النهضة الاجتماعية مرتهنة اليوم بمدى قدرة الناس على إثراء مجتمعاتهم بالمنظمات والاتحادات والنقابات والروابط والجمعيات والمؤسسات التي تسد الفراغ الفاصل بين المجتمع والدولة.

إن مؤسسات المجتمع المدني لا تشتغل بالسياسة، ولا تهدف إلى الوصول إلى السلطة، لكنها تشارك في القرار السياسي بصورة غير مباشرة من خلال شغل الفضاء الذي يمكن أن تتمدد فيه الدولة ومن خلال الضغط الأدبي الذي تمارسه عليها، وبذلك توجد نوعًا من التوازن بين الحكومة والمجتمع، وتلعب دور الوسيط بينهما.

إن مأسسة المجتمع تقوم على فلسفة عميقة شعارها: ( حكومة أصغر ومجتمع أكبر ).

إن بعض الدول تخصم من الضرائب المترتبة على المواطن ما يتبرع به للأعمال الخيرية، انطلاقًا من الإيمان بأهمية وضع شيء من مقدرات البلاد بعيدًا عن سلطات الموظفين الحكوميين، وذلك من باب الاحتياط للحفاظ عليها ، وهذا يشيع فكرة المشاركة في الارتقاء بالبلاد.

إنني أنظر إلى المؤسسات التطوعية على أنها مدارس لتدريب المواطنين على فعل الخير وإشاعة قيم عظيمة مثل المحبة والتضامن والعمل ضمن فريق، والتعاضد المتبادل والمبادرة وبناء إرادة المواطنة والمساعدة على إيجاد المواطن الفعال...

ونحن نلاحظ بوضوح أن مَأْسَسة المجتمع مرتبطة بدرجة تحضره؛ ففي فلسطين المحتلة على سبيل المثال: مؤسسة لا ربحية لكل ( ١٧٠ ) شخصًا، على حين أن عشرين ألفًا في مجتمع متخلف لا يكادون يظفرون بمؤسسة واحدة! ومن هنا فإن على الحكومات والجماعات والأحزاب وكل القوى الخيرة في العالم الإسلامي أن تتكاتف من أجل تشجيع انخراط كل أفراد المجتمع في العمل الخيري والتطوعي المنظم والمستمر، وأعتقد أنه يجب أن يكون في كل حكومة عربية وإسلامية وزارة مهمتها العمل على تحفيز الناس على مأسسة المجتمع وعلى رعاية العمل الخيري ودعمه وتسهيل مهماته.

إن الذي يصنع الفارق بين حشد الأجساد وبين ما يمكن أن نسميه مجتمعًا هو أولئك الناس الذين يهبون جزءًا من أموالهم وأوقاتهم لخدمة المصلحة العامة، وحماية المجتمع من التحلل والتدهور؛ ولهذا فإن نظرة عجلى على النصوص الواردة في ( ثواب الأعمال ) توضح لنا بجلاء أن أعظم الثواب مخصص للعبادات

الاجتماعية، أي العبادات التي تنطوي على تقديم العون للناس وعلى مساعدتهم في تجاوز أزماتهم ومشكلاتهم.

### العمل في مجموعات صغيرة:

الأعمال الحضارية والحياتية عامة نوعان: أعمال في إمكان المرء أن ينجزها بنفسه دون الحاجة إلى مساعدة أحد، وأعمال لا يمكن إنجازها إلا من خلال فريق أو مجموعة، ونحن نلاحظ أن الناس كلما تقدموا أكثر صار إيمانهم بالعمل الجماعي أقوى، وما ذلك إلا لأن تكاليف الارتقاء بالحياة العامة تزيد، ولذلك فإنها تتطلب جهدًا جماعيًّا منسقًا.

وعي الناس مفتون في الغالب بالعملقة والعمل في المنظمات الكبيرة، لكن عند التنفيذ العملي نجد أن المنظمة الكبيرة تقسِّم نفسها إلى عدد من الأقسام والوحدات الصغيرة من أجل التركيز وسرعة التنفيذ. تتكون المجموعة الصغيرة في العادة من ثلاثة أفراد إلى خمسة عشر فردًا، وإن من ميزات العمل في مجموعة صغيرة:

- سرعة التفاهم بين أفراد المجموعة.
- سرعة تبادل المعلومات المتوفرة.
- من السهل فيها الحفاظ على أسرار العمل، أما في المجموعات الكبيرة فإن المحافظة عليها شبه مستحيلة.
- سهولة التواصل عبر أجهزة الاتصالات الحديثة؛ مثل: ( سكايب ) و ( الويبكس ) مثلًا.
- التركيز على قضية محددة والعمل على خدمتها بطريقة احترافية.

لا شك أن للعمل في المجموعات الصغيرة بعض السلبيات؛ مثل: المجاملة على حساب الهدف من وجود العمل، عدم توزيع الأعباء على نحو عادل، إمكانية تفكك المجموعات الصغيرة أكبر من إمكانية تفكك المجموعات والمنظمات الكبيرة، ولكن مع هذا تظل الإيجابيات أكثر.

إذا افترضنا أن لدينا قرية يسكنها عشرة آلاف شخص يكون في إمكان محبي الخدمة العامة أن يشكلوا مجموعات صغيرة - ثمانية أشخاص في المتوسط - على النحو التالي:

١ - مجموعة للاهتمام بنظافة شوارع القرية وإزالة كل ما يؤدي إلى التلوث البصري.

٢ - مجموعة لحل المشكلات الاجتماعية التي تنشأ من احتكاك الناس بعضهم ببعض وإصلاح ذات بينهم.

٣ - مجموعة مكونة من مدرسين متنوعي الاختصاصات من أجل مساعدة الطلاب المتعثرين في دراستهم ممن ينتمون إلى أسر فقيرة..

٤ - مجموعة تهتم بتشجير القرية ودهن الأرصفة....

٥ - مجموعة لحث الناس على القراءة، وتوفير دورات يتعلم فيها الشباب مهارة القراءة السريعة، والقراءة النقدية...

٦ - مجموعة للاهتمام بالأرامل والأيتام والمساكين ومساعدتهم على تصريف شؤونهم.

٧ - مجموعة لتطوير السلوك الاجتماعي وتخليص الناس من العادات السيئة؛ مثل التدخين والتبذير في الإنفاق على الحفلات والمناسبات المختلفة.

٨ - دعم الطلاب المتفوقين ورعاية المبدعين.

### الضبط الاجتماعي:

المجتمع بوصفه إطارًا للعيش المشترك وفق مفاهيم وأعراف وفي سياق عادات وتقاليد محددة، ينزع دائمًا إلى الحفاظ على وجوده من خلال تضييق نطاق الانحراف عن المعايير الاجتماعية المعترف بها، وهو في ذلك يستخدم الكثير من الأساليب والوسائل، ومن أهمها العرف والعادات والتقاليد والتنشئة الاجتماعية والضمير الجمعي والقانون، ولا شك في أن كل ذلك يتصل بعقيدة المجتمع ونظرته إلى الحياة ومسؤولياته فيها. أنا هنا لست معنيًّا بتوضيح الوسائل المشار إليها، ولكن أود توضيح عدد من الأفكار المتصلة بضبط المجتمع وتجديده، وذلك من خلال المفردات الآتية:

### ١ - التحكم اللطيف:

فطر اللّه الخلق على الإحساس بذواتهم والسعي إلى الاستقلال على كل الصعد وفي كل المجالات، لكن بما أن الإنسان يظل في حاجة إلى أخيه الإنسان كان على الناس أن يتحملوا القيود والمشكلات التي يفرزها العيش في جماعة ومجتمع واحد،

ونحن حين نقوم بتربية الصغار نواجه مشكلة عويصة هي دمج من نربيهم في الحياة الاجتماعية دون أن نؤذي طبائعهم وخصائصهم الفردية، وهذا كله يعني أن على المجتمع أن يدرك أنه يستطيع بقوة السيطرة على أفراده من خلال القانون والعرف وتقديس العادات والتقاليد، لكن عليه أيضًا أن يدرك أن الضغط المبالغ فيه على الأفراد لن يكون مؤشرًا على النجاح، فالتجربة الحضارية تعلمنا أن كل شيء ينمو تحت الضغط ينال حظه من التشويه، كما أن الضغط المبالغ فيه يحوِّل الناس إلى منافقين، ويقتل إمكانية التجديد والإبداع....

الوسيلة الأكثر نعومة والأكثر أمانًا وجدوى في ضبط الفرد هي ( التربية ) على القيم والمبادئ التي يؤمن بها المجتمع، وهذه الوسيلة تجعل الفرد مدافعًا عن المجتمع عوضًا عن أن يكون متمردًا عليه. أما القانون والعقوبات والرقابة المباشرة وكل الوسائل الفظة، فإنه ينبغي الاقتصاد في استخدامها إلى الحد الأدنى، وهي في الحقيقة تستخدم في ضبط من فاتته التنشئة الاجتماعية الصحيحة، وقد صدق من قال: « إن العقوبات لا تنشئ مجتمعًا لكنها تحميه ».

**٢ - في وجه العاصفة:**

كان الناس يعيشون في هجر وقرى وتجمعات سكانية صغيرة، وكان التطور الحضري بطيئًا، كما أن التربية في البيوت كانت تتم في أطر ووفق نماذج محلية، وقد انتهى كل ذلك وإلى غير رجعة! الأوضاع التي أشرت إليها مواتية جدًّا لبسط المجتمع سلطانه على الفرد، أما اليوم فإن الرقابة الاجتماعية وسيطرة الأعراف والتقاليد في تراجع مستمر بسبب ما ذكرناه من التواصل العالمي وانتقال نسبة كبيرة من السكان للعيش في مدن كبرى، سمتها العامة جهل الناس بعضهم ببعض، أضف إلى هذا أن الغرب هو المؤثر الأكبر في إعادة تشكيل ثقافة العالم، وهو كما نعرف يعاني من أمراض اجتماعية خطيرة للغاية، من جملتها تفكك الأسرة وحمل المراهقات وانتشار إدمان الخمور والمخدرات بين الأطفال والشباب، بالإضافة إلى سيادة روح الفردية المريضة... ونحن نتأثر اليوم بكل ذلك، ولولا وجود الإيمان باللَّه تعالى وتحلي كثير من الآباء والأمهات بالفضائل الإسلامية لكنا اليوم في أوضاع كارثية.

ومع هذا فلا بد من العمل بكل جدية من أجل حماية الجيل الجديد من الانهيار

الأخلاقي. كما أنه لا بد من توفير الكثير والكثير من اللقاءات الخيرة التي تعيد روح التواصل إلى سابق عهدها على قدر الإمكان.

### ٣ - التجديد المبصر:

لن نكون صادقين ولا موضوعيين إذا قلنا: إن أوضاع مجتمعاتنا قبل خمسين سنة كانت ممتازة أو قريبة من الكمال، فهذا غير صحيح، فقد عانى معظم الآباء والأجداد من الجهل والفقر والمرض والاستعمار وصعوبة الحياة على نحو عام؛ ولهذا فإن اهتمامنا بالتماسك الاجتماعي لا يعني تجميد مجتمعاتنا وحفزها على التمسك بعادات وتقاليد ما أنزل اللّه بها من سلطان. إن التجديد الاجتماعي لا يعني تقليد الأجنبي، كما أنه لا يعني التخفف من القيود الأخلاقية، ولكن يعني أمورًا من نحو:

أ - جعل أحكام الشريعة الغراء هي المرجع في الحفاظ على كثير من العادات والتقاليد وفي التخلص منها.

ب - تنظيم التواصل الاجتماعي على نحو نحفظ به أوقاتنا، من أجل أداء واجباتنا؛ حيث يُلاحظ أن الناس في القرى وفي المدن الصغرى يسرفون في قضاء الكثير من أوقاتهم دون أية فائدة..

ج - التخفيف من التقاليد والعادات التي ترهق كاهل الرجال مثل الولائم الكبرى، ومبالغة النساء في أمور الزينة والملابس ومتطلبات حضور الحفلات والمناسبات الاجتماعية الكثيرة.

د - تفهم حاجات الجيل الجديدة ومنحه المزيد من الحرية والتقدير مع تكثيف التواصل معه ومساعدته على مواجهة أعباء الحياة.

هـ - البحث عن المغزى والقيمة والفائدة في كل علاقاتنا ومواقفنا الاجتماعية، وتقليل الاهتمام بالشكليات والمظهريات.

و - إنشاء عدد كبير من المؤسسات والنوادي وإطلاق عدد كبير من الأنشطة والبرامج التي تساعد الناس على التواصل والتعاون المفيد والمنظم.

ز - إطلاق عدد كبير من الدراسات والبحوث والندوات التي تساعد المجتمع على الوعي بأوضاعه ومشكلاته وتساعده على الاهتداء إلى طرق معالجتها.

ح - إغناء المجتمع بالمؤسسات التطوعية التي تتيح للشباب الارتقاء بمجتمعاتهم واستثمار طاقاتهم وأوقات الفراغ لديهم.

ط - إخضاع ما لدينا من عادات وتقاليد على صعيد الأكل والشرب والنوم والحركة اليومية.. لما هو ثابت من العلم والتواؤم معه.

ي - اقتباس ما هو جيد في تقاليد العمل والتدبير للشأن العام والخاص من الأمم المتقدمة، وكذلك ما أتاحه التواصل العالمي من الخبرات والمعارف مما ينفعنا، ولا يتعارض مع قيمنا.

إن المجتمع يعطينا على مقدار ما نعطيه، وإن الشعار الذي ينبغي أن يرفعه المسلم اليوم هو: ( أنا لمجتمعي ومجتمعي لي ).

* * *

## تعليم وتربية أفضل

على مدار التاريخ كان الناس يدركون الفرق الذي يصنعه التهذيب والتعليم في حياة الناشئة، لكن ذلك الإدراك كان دائمًا في حاجة إلى تفسير وتحديد أكثر، والحقيقة أن التقدم الحضاري كان دائمًا يقوم على التقدم في التربية والتعليم، وهو نفسه يتطلب المزيد منهما؛ ولهذا فإني أستطيع القول: إن العالم يدرك أفضل من أي وقت مضى محورية الارتقاء بعقل الإنسان وروحه في النهضة والتقدم الحضاري، والدول الأكثر تقدمًا اليوم هي الأفضل إدراكًا لهذه المسألة، وهذا واضح من خلال الأموال والجهود الضخمة التي يتم إنفاقها على التعليم والمؤسسات التربوية المختلفة.

إني أؤمن إيمانًا جازمًا بأن تحسين التعليم بجميع مراحله هو المدخل الحقيقي لتحقيق قفزة نوعية على الصعد النهضوية كافة، وهذا ما نفهمه من كون أول كلمة في أول آية في أول سورة نزلت على نبينا ﷺ هي كلمة ( اقرأ ). اقرأ يا أيها الأمي واقرؤوا أيها الأميون، فبالقراءة والكتابة سيكون لكم حياة جديدة وعالم جديد، أنتم سادته وأساتذته...

## رجل كل العصور

أعتقد أننا وقبل كل شيء في حاجة إلى بلورة أفكار واضحة عن السمات الثابتة التي يحتاجها المسلم الفاضل الناجح في كل زمان، وأينما كان، مع إيماننا بأن ما تراكم من خبرات بشرية يؤكد على أن ما سنشير إليه هنا بات مطلوبًا بشدة، وسيتعمق الطلب عليه في قابل الأيام، وأنا أتمنى أن يصبح بعضًا مما نسعى إليه في أنفسنا وفي ممارساتنا التربوية والتوجيهية والتعليمية، ولعل من أهم تلك السمات الآتي:

### ١ - الترحيب بالخبرات الجديدة:

عصرنا يختلف على نحو واضح مع كل العصور، وعلى سبيل المثال فقد كان الناس يسكنون في أحياء آبائهم وأجدادهم، بل كانوا يتوارثون المهن والأعمال عن أسلافهم، وكان زواج البنت من رجل ينتمي إلى حي غير حي أهلها أو إلى قرية في جوار قريتهم يعدّ غربة يُحسب حسابها... قد تغير كل ذلك بسبب أسلوب العيش الجديد. اليوم هناك من الأوربيين من لا يرى أية أهمية لامتلاك مسكن، فالسكنى في

بيت مستأجر تمنح حرية الانتقال من بلد إلى آخر، وهناك من الشباب من يعمل كل أربع أو خمس سنوات في شركة أو مؤسسة جديدة، وأعتقد أن هذا سوف يتعمق في المستقبل، وربما اقتضته الحاجة والضرورة، ومن هنا فإن الإنسان المستقبلي الباحث عن النجاح والتفوق يحتاج دائمًا إلى الاستعداد لتقبل عدم الاستقرار، بل يحتاج إلى التحلي بروح الإقدام وشجاعة المغامرة، هذه هي طبيعة الحياة اليوم.

### ٢ - العقل المنفتح المستقل:

في الماضي كان الناس يعيشون في بيئات ضيقة؛ ولهذا فإن الناس كانوا يخافون من بعضهم، ويخضعون لما هو سائد من الأفكار والعادات، وقد أدى ذلك إلى جمود التفكير وتجذر الأمراض الأخلاقية والاجتماعية، أما اليوم فإن الظروف قد تحسنت كثيرًا بسبب عيش شريحة واسعة من الناس في المدن الكبرى وبسبب تدفق الأفكار والمعلومات الجديدة، ولهذا فإن المطلوب من أبناء الغد هو التمتع بعقول منفتحة تمارس النقد الذاتي، وتنشط في إصدار الأحكام على الوقائع والأحداث، كما أنها تبدع الأفكار البناءة.

إننا اليوم نستهلك الكثير من الأفكار والنظم بسبب هذا السيل من التطبيقات المتسارعة والمكثفة؛ ولهذا كان السبيل الوحيد لبقاء عقولنا في حالة من التألق والتوهج هو إنتاج المزيد من الأفكار الجديدة وفتح المزيد من حقول الممارسة. الشرط الأساسي لكل ذلك هو فكاك المرء من تأثير الأفكار السائدة والتي كثيرًا ما تعمل على تكريس التخلف والتقليد والجمود.

### ٣ - الإيمان العميق:

الإيمان باللّٰه تعالى بالمفهوم العقدي الإسلامي هو أساس من الأساسات العميقة لأي نهضة؛ لأنه يمنحنا الرؤية، ويشكل ( البوصلة ) التي نهتدي بها في دروب التقدم. الإيمان على المستوى النظري يمكن أن يحصُل عليه المرء من خلال قراءة كتيب في العقيدة، لكن ما هو مطلوب للعيش في المستقبل أكثر من ذلك، إنه الإيمان الشعوري حيث يحس المسلم بالقرب من اللّٰه تعالى كما يحس بحبه وخشيته والحياء منه.. وطريق التحلي بهذا هو الكف عن المعاصي والإكثار من الثناء على اللّٰه تعالى ومناجاته؛ إذ إن اللغة تصنع المشاعر، وإن نداوة اللسان بذكر اللّٰه تعالى تجعل الروح

ندية ومشرقة، وقد صح أن رجلًا قال: يا رسول اللَّه إن شرائع الإسلام قد كثرت عليَّ فأنبئني منها بشيء أتشبث به قال: « **لا يزال لسانك رطبًا بذكر اللَّه** ﷻ »(١). إن كل العبادات تعمق الإيمان، بل إن العبادة تكون مجوَّفة وشكلية إذا لم تفعل ذلك. إن التيار الشهواني الذي نواجهه اليوم آخذ في الاشتداد، وإن مواجهته لن تكون بطرح المزيد من الأفكار، وإنما بإطلاق تيار روحي يقوم على حب اللَّه ورسوله والعمل من أجل الآخرة..

### ٤ - الانضباط الذاتي:

مطلوب منا جميعًا اليوم وفي الأيام القادمة أن نعوِّد أنفسنا تأجيل الرغبات والضغط على المشاعر؛ وذلك لأن المنافسة الشديدة في عالم الأعمال بالإضافة إلى كثرة المتطلبات والمسؤوليات والمغريات تفرض على المرء أن يرفع درجة توتره واهتمامه، كما تفرض عليه التنازل عن بعض المرفهات، وما تعوده من الاسترخاء والنوم والجلسات الطويلة مع الأصدقاء والسّمار، وعلى المرء إلى جانب هذا أن يصمد في وجه المغريات المالية والشهوانية طلبًا لمرضاة اللَّه تعالى أولًا، وتهيؤًا لإنجاز الكثير من المهمات التي تنتظره حيثما اتجه.

إن الانضباط الذاتي لا يعني حرمان النفس ولا العيش في شقاء متواصل، ولكنه يعني الاستجابة للتحديات على نحو يجعل الواحد منا قدوة وكفؤًا وعلى قدر المسؤولية.

### ٥ - الحفاظ على الوقت:

الوقت هو رأس مالنا في هذه الحياة، وعدم الاستفادة منه يشبه الذي يحرق ما لديه من مال على نحو متدرج. دائمًا كان استغلال الوقت على النحو الأمثل منتجًا من المنتجات الحضارية، أي أنه مرتبط بدرجة التقدم الاجتماعي والعمراني، ولكن هذا لا يعني أن كل من سكن في مدينة متقدمة يستفيد من وقته على نحو جيد. إنسان الغد مطالب بأن يكون شحيحًا بوقته كشحه بماله؛ لأنه لا إنجاز بدون عمل، والعمل يحتاج دائمًا إلى الوقت. وقد دلت الخبرة التاريخية على أن الأوقات تذهب سدًى ما لم نضغط عليها بأهداف مستقبلية؛ ولهذا فإننا نلاحظ أن أفضل الناس تنظيمًا أفضلُهم في الاستفادة من أوقاتهم. الاستفادة من الوقت تتطلب أن نسأل أنفسنا دائمًا

---

(١) أخرجه ابن ماجه.

بعض الأسئلة مع الاستجابة لمقتضياتها:

- ما الشيء المفيد الذي يمكن أن أفعله الآن لكنني لا أفعله ؟
- ما الشيء الذي إذا فعلته بأسلوب أفضل وفرت من الوقت الذي سأبذله فيه؟
- هل أنا من الناس الذين ينامون أكثر من حاجتهم الفيزيولوجية، فيضيع بعض وقتي سدًى؟
- هل في إمكاني قضاء الحاجة الفلانية أو العمل الفلاني دون الخروج من بيتي من خلال الاتصال بالهاتف أو التسوق على ( النت )؟
- ما الأعمال التي يمكن أن أفوضها إلى غيري من موظفين وغيرهم حتى أستخدم أوقاتي فيما هو أهم وأجدى ؟
- هل أطيل في مكالماتي الهاتفية، وفي زياراتي أكثر مما ينبغي؟.
- هل أنا من الذين يطيلون في الفاصل بين عمل وعمل؟

هذه الأسئلة ونحوها مفيدة جدًّا في تسليط وعينا على طرق تعاملنا مع أوقاتنا، والمهم دائمًا التفاعل مع الأجوبة التي نتلقاها وتطوير السلوك استجابة لذلك التفاعل.

### ٦ - التخطيط للارتقاء:

حين نضع خطة من أجل تحقيق هدف نبيل، فقد تنجح تلك الخطة، وقد لا تنجح، لكن حين لا يكون لدينا أي خطة، فإن الفشل حينئذ يكون مضمونًا!

إذا دققنا في شؤوننا العامة، فإننا سنجد أن كل ما هو مهم في حياتنا يحتاج إلى تخطيط خاص، وهذا ما نفعله في كثير من الأحيان، ولكن علينا أن نعترف بأن كثيرًا من خططنا يبوء بالفشل بسبب وجود خلل في جانب ما من جوانب تلك الخطط، وما ذلك إلا لأن خبرتنا في التخطيط محدودة. إن من أفضل ما يمنحنا إياه التخطيط التدرب على حشد ما لدينا من موارد مشتتة ومتنوعة، والقدرة على اكتشاف ما لدينا من إمكانات ناجزة وكامنة بغية الوصول إلى أهدافنا الكبرى، وأعتقد أننا في هذا السياق في حاجة إلى نوعين من الخطط:

**أ - خطط للارتقاء بشأننا الشخصي على صعيد التعامل مع الله تعالى وعلى صعيد التعامل مع ذواتنا والتعامل مع الناس.**

ب - **خطط للنجاح في أعمالنا وما نعده مصدرًا لرزقنا**، كلا النوعين يحتاج إلى عدد من الأمور منها:

- **تحديد ما الذي نريده بالضبط**؛ وذلك لأن الهدف الغامض لا يستنهض الهمم، ولا يستنفر الطاقات، وهذا يقتضي الابتعاد عن أهداف هي أشبه بالأمنيات، وذلك مثل القول: أسعى إلى أن أكون أحسن خلقًا أو أكثر ممارسة للقراءة، أو أفضل برًّا بأبوي، أو أكثر التزامًا في الحضور إلى مكان العمل..

إن هذه التطلعات غائمة وعائمة، ولا يمكن قياسها بسبب كونها كيفية، والمطلوب تحويلها إلى شيء كمي، أو تحديد الأسباب المرتبطة بتلك الأهداف على نحو حتمي أو شبه حتمي، وهذا مثل أن يقول من يخطط لأن يكون أفضل تدينًا: سأستيقظ قبل الفجر يوميًّا بأربعين دقيقة، وسأتصدق كل يوم بدينار، وسأغض طرفي عن محارم اللَّه، ولن أقابل السيئة من أي إنسان بالسيئة... وكما يفعل من يريد التفوق في دراسته، إذ يقول: سأذاكر يوميًّا أربع ساعات، وسأحرص على ألا أغيب أبدًا عن أي محاضرة، وسأجعل خلال سنة كل ما أكتبه خاليًا من أي خطأ إملائي أو نحوي. إن هذا الأسلوب في تحديد الأهداف هو الذي يحفزنا على بذل الجهد ويجعلنا ننتظر يوم الاحتفال بحصول المقصود على التمام والكمال.

- **تقدير ما لدينا من موارد وإمكانات على نحو جيد ودقيق والعمل على حشده وتفعيله**، ومن المهم أن نكون دقيقين في هذا؛ لأن التهوين من شأن مواردنا.. سيدفعنا إلى تحديد أهداف متواضعة، والمبالغة في تقديرها يدفع بنا نحو الشعور بالعجز والإحباط، على أن من المهم أن ندرك أن الشروع في العمل نفسه يستدرج فرصًا وإمكانات لم تكن موجودة أو مرئية عند البدء به، ولهذا فلا بأس في شيء من سعة الطموح وتكبير الأهداف.

- **يستحسن أن تكون الخطة عبارة عن دوائر متداخلة**، فهناك تصور مكتوب لما ينبغي في خمس سنوات وفي سنة وشهر وأسبوع، وعند الصباح يكون من المستحسن كتابة ورقة صغيرة لما سيتم العمل عليه في بقية اليوم.

- **خطة من غير متابعة ومراجعة ومحاسبة هي خطة محكوم عليها بالإخفاق**، ولو أننا تأملنا في تخطيط الناس لشؤونهم لوجدنا أن السواد الأعظم منهم يملك رؤية أو خطة

لما يرغب في الوصول إليه، وبعضهم يبدأ فعلًا في التنفيذ، لكن الذين يتابعون خططهم حتى النهاية قد لا يصلون إلى ( ٢٠٪ )؛ ولهذا فإنه ينبغي أن يكون مع كل خطة آلية لتفحص ما تم إنجازه ومراجعة أسلوب العمل.

### ٧ - الإيمان بإمكانية التقدم:

حين تكون الأمة في حالة ضعف وتخلف وفتن فإن الذي يسيطر على الوعي هو التشاؤم واليأس والشعور بانسداد الآفاق، أضف إلى هذا أن لدينا أعدادًا كبيرة من الناس يعتقدون أن الأمة لن تنهض لأنها ضحية مؤامرة كونية، ولو أنها تركت وشأنها لفعلت العجائب ! وإلى جانب هؤلاء وأولئك هناك من يعتقد أن العالم كله سائر في طريق الهلاك والاضمحلال، ولهذا فإن الحديث عن التقدم هو دائمًا حديث عن حركة محدودة في سياق التراجع والتدهور..

الإيمان بإمكانية التقدم يعني الاعتقاد بوجود فرص دائمة لأن نكون إلى الله تعالى أقرب، ولأن نتعلم على نحو أفضل، ولأن نجد مكانًا أحسن للعمل وممارسة النشاط الاجتماعي..

نحن نعرف أنه كلما اتجهت الحياة نحو التعقيد صار لدينا فرص أكبر في كل نواحي الحياة، وهذا هو الذي نلمسه ونشاهده اليوم.

إن في العالم ملايين الباحثين الذين يعملون على إبداع مواد صناعية جديدة، ويعملون على تطوير النظم الإدارية والتشغيلية السائدة، كما يعملون كذلك على تطوير التقنية، وهذا كله يؤدي إلى إيجاد ملايين فرص العمل كل عام، وإن ( الربيع العربي ) يقدم شاهدًا على إمكانية حدوث تقدم قانوني وأخلاقي في زمن قياسي؛ لهذا فإن اليأس من صلاح الأحوال، واليأس من تجدد المعطيات الجيدة يعبر عن مزاج منحرف أو عن قصور في الرؤية والخبرة. ربنا ﷻ علمنا بأن اليسر قرين العسر ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ﴾ [ الشرح: ٥،٦ ]. ولهذا فإن على رجل الغد الاعتقاد بأن عصره يوفر له كل ما يحتاج إليه في بحثه عن الرقي والفاعلية، وعليه من جهته القيام بما ينبغي القيام به.

### ٨ - التعلم في مكان جيد:

على مدار التاريخ كان لدى بعض الناس نوع من الشك في مدى مساعدة العلم

لأصحابه على أن يكسبوا رزقهم بكفاءة، وأن يظفروا بالمكانة اللائقة بهم، وقد كان من المألوف في الأوساط العلمية القول: إن فلانًا كان ثريًّا ثم أدركته حرفة الأدب فافتقر! أي إن طلبه للعلم باحتراف وتفرغ قد دفع به في طريق الفقراء. وقد حملهم على ذلك الاعتقاد ما شاهدوه من غلبة الفقر على طلاب العلم.

أما اليوم فإن العرف قد استقر على أهمية التعليم في إعداد الشباب للحياة. البداية دائمًا تكون في المنزل والأسرة؛ حيث إن على الأبوين أن يختارا للطفل المدرسة التي تصوغ شخصيته صياغة جيدة، وعليهما توفير المال المطلوب لذلك عن طريق فتح حساب توفير لكل واحد من الأبناء، وما يتم جمعه في ذلك الحساب ينفق منه على تعليمه وتدريبه.

إن من المهم أن ندرك أن التعليم الممتاز مكلف جدًّا، ولكن التعليم الرديء أعظم كلفة منه، وإنما على المدى البعيد. التعليم الجيد هو التعليم الذي يوفر بيئة أخلاقية وتعليمية جيدة وجادة جدًّا، وهو التعليم المنفتح والمتطور الذي يحمل الطالب على بذل أقصى جهده في تحصيل المعرفة، ويساعده على بناء منهجية خاصة تمكنه من فهم ذاته ومحيطه على نحو جيد. التعليم الرديء يفسد الخلق، ويجعل الطموحات منخفضة، أي أنه يؤسس للفشل والانحسار.

### ٩ - المشاركة الإيجابية:

كلما مضى الناس في طريق الحضارة صار لزامًا على الواحد منهم أن يوسِّع دائرة مشاركته في الحياة العامة، وإن المشاركة الإيجابية في خدمة البيئة والمجتمع المحلي تتطلب عددًا من الأمور؛ منها:

أ - **الإيمان بأن فضائلنا الشخصية يجب أن تجد في الإحسان إلى الناس أفضل تجسيد لها**، والحقيقة أن الناس يحتاجون إلى من يقدرهم ويحترم خصوصياتهم أكثر من حاجتهم إلى من يمنحهم الدرهم والدينار. إن اعتقاد أي شخص بتميزه على زملائه وجيرانه وأبناء بلده قد يدفع به إلى إقصائهم وتهميشهم، وبذلك يخسر إمكانية التعاون معهم والاستفادة منهم.

ب - **ما هو مشترك بين أبناء المجتمع الواحد يتسع على نحو مواكب للتقدم الحضاري**، وهو يحتاج بالتالي إلى رعاية متنامية؛ ولهذا فإن على الإنسان المتحضر أن يسهم في

بناء المرافق العامة وصيانتها، كما أنه عليه العمل على صون ما لدى المجتمع من تقاليد حميدة وأعراف صالحة، وعليه الإسهام في مساعدة العناصر الضعيفة ونشر الخير ومحاصرة الشرور.

ج - **الانخراط في الجهود الإصلاحية السلمية والإسهام في نقد ما يمكن أن يكون في المجتمع من اعوجاج وقصور**، وهذا واجب ديني وأخلاقي في المقام الأول.

د - **تشذيب الزوائد الشخصية والتي كثيرًا ما تتمثل في الاعتزاز بالرأي والفردية الزائدة والأنانية والرؤية الضيقة والافتخار بالنسب وادعاء التفوق.. إن المشاركة الإيجابية تتطلب من الشخص نوعًا من الاندماج في المجموع**، وهذا لا يتم إلا إذا كان لديه درجة من التماثل والتشابه مع الآخرين. التشاؤم والنقد الزائد والمزاجية في التعامل مع المواقف والأحداث... أمور تجعل المرء أقرب إلى السلبية منه إلى الإيجابية، ولهذا وجب التخلص منها والقطع معها على نحو ظاهر.

## تعليم أفضل

لا نبالغ حين نقول: إن ( التعليم ) من أقدم الأشياء التي انفتح عليها وعي البشرية؛ ولهذا فإن نقده وتقويمه كان باستمرار الشغل الشاغل للأسر والمجتمعات، وما ذلك إلا بسبب مركزية الرهان على العلم بوصفه المدخل والشرط لكل نهضة حضارية مرتقبة.

من المهم أن نستحضر دائمًا أن ( الجهل ) بكل أشكاله ومستوياته ووجوهه هو العدو الأول للإسلام والمسلمين، وإن الحد منه بأي وسيلة ممكنة هو هدف استراتيجي لا يصح التغافل عنه.

الناس يفرحون بدخول أبنائهم وبناتهم المدارس والجامعات فرحًا غامرًا، لكنهم بعد ذلك لا يترددون في نسبة كل ما يلقاه أبناؤهم من فشل وإخفاق في دروب الحياة إلى المؤسسات التعليمية التي تخرجوا فيها، وهم على حق في كثير مما يزعمون!.

العالم حائر في تطوير مؤسساته التعليمية لسبب وجيه هو أن المحافظة على القديم ومقاومة الجديد والبطء في التغيير تكاد تكون جزءًا من طبيعة كل المؤسسات التعليمية، كما أن المؤسسات التعليمية الناجحة تغري الحكومات والشعوب بأن يطلبوا من التعليم المزيد من النجاح والإنجاز؛ ولهذا كله فإن معظم الناس يشكون

من رداءة التعليم وضعف أداء مؤسساته. أنا في كتاب كهذا الكتاب(١) لا أستطيع التوسع في سمات التعليم الجيد وشروط نجاحه، ولهذا فسأكتفي بما أعده إشارات مركَّزة لذلك:

### ١ - إعداد الإنسان العالمي:

في ظل الانفتاح العالمي الضخم والمتسارع صار مصير الناس في أنحاء الأرض أكثر ترابطًا وتداخلًا، وهذا بدوره أدى إلى بلورة معايير عالمية لنجاح التعليم، وقد صار من المعتاد عقد مسابقات عالمية بين طلاب صفوف محددة في مواد محددة - كالعلوم والرياضيات مثلًا - توكيدًا لمعنى العالمية وتوكيدًا لانتهاء الاعتذار بالمحلية والخصوصية.

إن المطلوب من مدارسنا وجامعاتنا اليوم أن تؤهل منسوبيها للعمل في أي مكان من العالم؛ لأن من المتوقع أن يشهد العديد من الدول شحًّا في الأيدي العاملة وفي الكفاءات المختلفة، بسبب قلة الشباب وارتفاع نسبة المسنين، كما أن العديد من الدول يعاني اليوم من شح الوظائف وفرص العمل بسبب ضعف الاستثمارات وبطء حركة التنمية، ولهذا فإن على شباب الغد أن يكونوا مستعدين ومؤهلين للعمل في بلدان تبعد عن بلادهم ألوف الأميال، وهذا يكون ممكنًا حين يكون لدينا مدارس وجامعات جيدة ومعتبرة وفق المقاييس العالمية. ولا أريد شرح ما الذي يعنيه هذا؛ لأن معظم القائمين على الجامعات والمدارس يعرفونه تمام المعرفة.

### ٢ - المهم هو المخرجات:

بعض الجامعات والمدارس يواجه ضغوطًا قوية من الحكومة والأهالي من أجل الحصول على الاعتماد الأكاديمي أو من أجل التقدم في سلالم التصنيفات العالمية، وقد واجه بعضهم هذه الضغوط بإدخال بعض التحسينات الشكلية؛ مثل زيادة التجهيزات أو التعاقد مع باحثين مشهورين أو إيجاد مصادر خيرية جديدة للإنفاق على الأنشطة المختلفة، وهذا كله جيد، لكن سيكون في نظري من غير أي معنى إذا لم ينعكس على مستوى الخريجين وعلى لياقتهم لشغل الوظائف المرموقة. إن من حسن الحظ أن الطلاب أول مَنْ يشعر بالتحسن والتغير الذي يحدث نتيجة إعادة

---

(١) للمؤلف في معالجة مسائل التعليم كتاب ( بناء الأجيال ) وكتاب ( حول التربية والتعليم ).

التنظيم؛ ولهذا فإن من المهم دائمًا أن يكون لآرائهم في التعليم الذي يتلقونه أهمية خاصة.

طبعًا مع الأيام يصبح للمدرسة والجامعة سمعة خاصة في المجتمع، وفي سوق العمل، وهذه السمعة مؤشر جيد لإيتاء الإصلاح ثماره المنشودة.

### ٣ - استمرار الدعم الحكومي:

صار لدى الحكومات العربية والإسلامية وعي متزايد بأهمية التوسع في الإنفاق على التعليم، ويحدث الآن نوع من التحول في هذا الشأن؛ حيث صار يعتقد الكثير من الحكومات بأن التعليم قطاع استثماري وليس من قطاعات الخدمات، وهذا شيء جيد جدًّا. المشكل في كثير من الأحيان أن الاستفادة من مخصصات التعليم تكون محدودة، أي أن المزيد من الإنفاق على التعليم لا يؤدي بالضرورة إلى تحسن مستوى الطلاب، وهذا في الحقيقة يعود إلى طبيعة استخدام الموارد المالية، حيث إن معظم مخصصات التعليم يتم إنفاقه في رواتب المعلمين والمباني، أما التجهيزات التقنية والمعامل وبرامج التدريب والأنشطة (اللاصفية) فإنها لا تحظى إلا بالقليل من المال، وهذا في البلدان الثرية. أما البلدان الإسلامية الفقيرة، فالمشكلة ذات رؤوس متعددة !. لا بد في نظري من منهجية جديدة في تدبير الأموال المطلوبة للنهوض بالتعليم وفي طريقة صرفها، ولا بد من مشاركة الأهالي والقطاع الخاص وقطاع الأعمال للحكومات في جهودها، فالتعليم مشروع أمة، وعلى الأمة كلها أن تسهم في نجاحه.

### ٤ - عناية أكبر من الأسر:

قد يقول قائل: إذا كان علينا أن ندفع الأموال الطائلة لتدريس أطفالنا في مدارس جيدة، فلماذا نكلف بتعليمهم في البيوت؟

هذا الكلام ليس نادرًا، بل هو مستبطن لدى كثير من الآباء والأمهات.. والذي أود أن أقوله هو: أن دور الأسرة هو دور محوري في تلقي الأبناء تعليمًا جيدًا، وإن اليابان تقدم نموذجًا قويًّا في هذا الشأن؛ حيث إن المدارس اليابانية من أرقى مدارس العالم، ومع هذا فإن الأم اليابانية هي الأكثر اهتمامًا حيث إنها تمتلك في الغالب نسخة خاصة من جميع الكتب المقررة على أطفالها حتى تقوم بتحضير الدروس من خلالها ثم مذاكرتها معهم!

يتجلى إسهام الأسرة في تدريس الأبناء من خلال عدد من الأمور:

أ - **فتح حساب في ( البنك ) أو تخصيص صندوق لكل طفل من أجل الإنفاق على تعليمه في كل المراحل أو بعضها حسب المصلحة**، وهذا مهم جدًّا، حيث إن التعليم الممتاز مكلف جدًّا اليوم، ومن المتوقع أن تقدم الحكومات تعليمًا متوسط الجودة، أما التعليم المتقدم فقد لا يحصل عليه الطالب في بلده إلا إذا دفع الكثير من المال.

ب - **التعاون مع المدرسة**؛ إذ إن المدرسة والأسرة تشتغلان على جهاز واحد هو الطفل، ولهذا فإن التعاون بينهما ضروري من أجل أفضل النتائج.

ج - **مساعدة الأطفال في حفظ دروسهم وكتابة واجباتهم**، وكلما كانوا في سن أقل كانت متابعتهم أهم، حيث إن حسّ الشعور بالمسؤولية يكون ضعيفًا لدى أبناء المرحلة الابتدائية، ويجب أن نقول في هذا السياق: إن من مسؤوليات الأسر حماية الأطفال من التلفاز والألعاب الإلكترونية وأجهزة الجوال - ولا سيما الذكية منها - إذ إن إتاحة هذه الأشياء للأطفال من غير قيود سيجعل الكتاب والواجبات المدرسية في منافسة معها، ولا شك في أن الغلبة ستكون لها. حفظ الدروس وكتابة الواجبات والبحوث وتنفيذ المشروعات المدرسية لها الأولوية المطلقة، وعند الفراغ منها يمكن أن نسمح للطفل بالترويح عن نفسه في حدود ساعة إلى ساعة ونصف يوميًّا.

د - **على الأسر أن ترسخ في عقول أبنائها ونفوسهم معنًى مهمًّا**، هو أهمية إتمام الدراسة حتى التخرج من الجامعة، وأن ذلك هو الحد الأدنى، إننا نريد أن يعتقد كل طفل بأن التفكير في ترك المدرسة في أي مرحلة وتحت ضغط أي ظرف يشبه التفكير في ارتكاب جريمة، وليس في هذا أي مبالغة، فشواهد الأحوال تشير إلى أن الضرر الذي يلحق بأي طالب يترك الدراسة قبل إنهاء المرحلة المتوسطة - على الأقل - يشبه الضرر الذي يلحق به بسبب قطع طرف من أطرافه، بل أشد. الأُسر مطالبة بتوسيع طموحات أبنائها في تحصيل المعرفة ومطالبة بجعل كل الأطفال يعتقدون أن المزيد من تحصيل العلم والمزيد من التدريب الممتاز هو الطريق الوحيد لتحقيق أسمى الأمنيات وأعظم التطلعات.

### ٥ - اهتمام أكبر بالمعلم:

المعلم - كما نقول دائمًا - هو محور العملية التعليمية، حيث إنه يجسِّد في عطائه

وسلوكه ما يمكن أن يحدثه التعليم من تغييرات جوهرية في شخصية الإنسان، والمعلم بعد هذا هو الذي يمنح المعنى والفاعلية للمناهج المدرسية؛ حيث ثبت أن كثيرًا من المناهج والمقررات العظيمة يمكن أن يفقد الكثير من تميزه حين يقوم على تدريسه مدرس غير مؤهل أو غير متزن أو غير مدرك لمسؤولياته الأخلاقية. الاهتمام بالمعلم يتجلى في عدد من الأمور منها:

أ - **من غير المنطقي والعملي على نطاق واسع أن نعطي المعلم القليل ونتوقع منه الكثير، ولهذا فإن من مسؤوليات الحكومات أولًا وعموم المواطنين ثانيًا أن يعملوا على جعل مهنة التعليم جذابة لكل العناصر المتفوقة في المجتمع**. إن مهنة التدريس من المهن الشاقة، وحتى يتحمل خريجو الجامعة مشاقها وتكاليفها فلا بد أن يكون هناك ميزات تجعل تحمل المشاق والصعوبات أمرًا مفهومًا ومقبولًا، ولا شك في أن المغريات المادية في زمان كزماننا هي الأساس، ولكن مع هذا فإنه لا يصح إغفال قيمة التقدير المعنوي، الذي يقدمه الجمهور لمن يتولون تثقيف أبنائهم، فنظرة الاحترام والتبجيل للمعلمين تجعلهم يحترمون أنفسهم وعملهم، وهذه هي بداية كل إنجاز كبير.

ب - **اختيار المعلم على نحو صحيح واحد من أهم وجوه الاهتمام بالنهضة التعليمية**، ويجب في هذا أن ننطلق من مسلَّمة تقول: ليس كل من نال شهادة في الفيزياء يصلح لأن يكون مدرسًا للفيزياء، وليس كل من نال شهادة في الشريعة يصلح لأن يكون مدرسًا للتربية الإسلامية؛ وذلك لأن التدريس لا يتطلب مجرد الذخيرة العلمية والمعرفة المتخصصة، إنه يحتاج أولًا إلى توفر خصائص نفسية وعقلية وأخلاقية محددة، ولهذا فلا بد من اختياره بهدوء وأناة وعبر عدد من المقابلات الشخصية والكتابية.

ويؤسفني القول: إننا في كثير من الأحيان لا نبذل من الوقت والجهد في اختيار المعلم ما نبذله عند إرادة شراء سلعة معمرة - سيارة أو ثلاجة مثلًا - مع أن المعلم قد يستمر في وظيفته أربعين عامًا! في دول كثيرة لا يُقبل في كلية الطب إلا من يثبت أن له شغفًا واضحًا بهذه المهنة الرفيعة من خلال تطوعه في المشافي والهيئات الطبية الخيرية، فلماذا لا نفعل هذا في اختيار المدرسين؟

إن أسوأ ما يمكن أن يقع على صعيد اختيار المعلمين هو قبول كل من هبَّ

ودبّ بسبب ضغط الضرورة والطلب المتزايد أو لأسباب خارجة عن معايير المهنة ومواصفاتها، وهذا ما يحدث في أحيان كثيرة، وهو عائق مهم أمام تطوير التعليم.

ج - **بعد اختيار المعلم يأتي إعداده وتدريبه**، وهذه حكاية تامة ومستقلة. في اعتقادي أننا إذا أخطأنا في اختيار شخص لهذه المهنة العظيمة، فإنه لا ينبغي للخطأ أن يستمر حتى النهاية؛ ولهذا فإن من المهم أن تكون السنة الأولى في كليات إعداد المعلمين سنة عامة تتم فيها غربلة الطلاب، فلا يستمر فيها إلا من يثبت صلاحيته لممارسة التعليم، وبعد التخرج يكون هناك تقويم آخر وغربلة أخرى حتى نحصل على جيل جديد من المدرسين الأكفاء. وبعد كل ذلك من المهم أن تكون هناك رخصة لممارسة المهنة يتم تجديدها كل أربع سنوات وفق معايير واضحة وصارمة، فمستقبل الأمة أهم من أي اعتبار. ومن جهة أخرى فإننا في حاجة إلى إعادة النظر في كل المناهج المتبعة في إعداد المعلمين، وفي حاجة إلى توظيف أساتذة جدد يعلِّمون ويدرسون بطريقة جديدة ومختلفة.

لدى الأمم التي طورت تعليمها ملاحظات وخبرات ومعايير وتقاليد في هذا الشأن، ولا بد من الاستفادة من كل ذلك، وأعتقد أن من المفيد جدًّا أن ترسل وزارات التعليم والجامعات الوفود لزيارة الدول التي نجحت في تطوير تعليمها من أجل استخلاص ما يمكن استخلاصه من تجاربها المميزة.

### ٦ - من أجل الفقير:

أكثر ما يدخل منه الضيم على الفقراء في زماننا هذا شيئان: الصحة والتعليم، حيث إن خدمات كثير من الحكومات في عالمنا الإسلامي متواضعة فيهما، وفي أحسن الأحوال متوسطة. حين تقع شدة وضائقة في مجال من المجالات، فإن الأثرياء يجدون في الغالب المخرج، أما الفقراء فيكونون أشبه بعصفور في قفص، إنه يدور حول نفسه دون جدوى.

في الماضي استعان المسلمون على معضلة حرمان أبناء الفقراء من التعليم بإقامة المدارس الوقفية، وتلك المدارس كانت من الكثرة بمكان ولا سيما في عصور الازدهار، فقد بلغت المدارس الشرعية الخيرية في دمشق أيام نور الدين زنكي نحوًا من ثلاثمئة وسبعين مدرسة، وهذا رقم كبير جدًّا بكل المقاييس، أما اليوم فالحال

على ما ترون وتسمعون ! إن المشكلة تتجسد في أوضاع الألوف من الطلاب النابهين الذين لا يجد أهلوهم الإمكانات المادية لتدريسهم في مدارس وجامعات جيدة، مما يجعلهم يغادرون المدرسة في وقت مبكر، أو يدرسون في مؤسسات تعليمية ضعيفة تقتل مواهبهم، ولا تؤهلهم للعمل في أي مكان جيد، هذه هي المعضلة.

لا شك في أنه ليس هناك حلول نهائية لهذه المشكلة الكبيرة، لكن مما يخفف من وطأتها الأمور الثلاثة الآتية:

**أ - تستطيع الحكومة سَنَّ عدد من القوانين التي تساعد في هذا الشأن؛ مثل إلزام البنوك بتقديم قروض من غير فائدة لأبناء الفقراء ممن يحصلون على درجات عالية،** ومثل إلزام الشركات بصرف نسبة ضئيلة من أرباحها في بناء مدارس وجامعات لا ربحية، ومثل إلزام الجامعات الأهلية بتخصيص نسبة من مقاعد الدراسة لمن يجتازون اختبارات معينة.

**ب - قيام أهل الخير والإحسان بإنشاء بنوك متخصصة في الإنفاق على تعليم أبناء الفقراء وتدريبهم.** إن الواقع يشهد بأن لدى كثير من الناس أموالًا طائلة مجمدة في البنوك، وإن محبي الخير كثيرون وهم مستعدون لإقراض الطلاب الفقراء إذا وجدوا جهات تضمن تلك القروض من خلال مؤسسات وبنوك قوية وذات مصداقية، وهذا ليس بالأمر الصعب.

**ج - إنشاء المدارس والجامعات اللا ربحية،** وهي مؤسسات وقفية تتقاضى على ما تقدمه من تعليم رسومًا مخفضة، وتقدم المنح الدراسية لمن يستوفي شروطًا معينة، وفي اعتقادي أن الغربيين متقدمون علينا في هذا المجال بما لا يترك أي وجه للمقارنة، مع أن سلفنا من المسلمين كانوا من أكثر أمم الأرض اهتمامًا وإبداعًا على صعيد الأوقاف.

إن كثيرًا من الناس لا يعرفون أن أفضل الجامعات الأمريكية على الإطلاق هي جامعات وقفية ولا ربحية كما هو الشأن في جامعات مثل ( هارفارد ) و ( ستانفورد ) و( دوك ) و( بنسلفانيا ) و( بيركلي ) وغيرها كثير، وأوقاف هذه الجامعات بعشرات المليارات من الدولارات ! إن لدينا من الأثرياء من هم قادرون على إنشاء مئات الجامعات المرموقة، لكن ذلك لا يحدث بسبب انعدام ثقافة العمل الخيري، ونحن نعرف أن المهم ليس أن يملك بعض الناس الكثير من المال، وإنما المهم أن يملكوا

القدرة على إنفاقه في وجوه الخير، وهذا ما نشكو منه مر الشكوى. قد تكون البداية في إنشاء مؤسسة خيرية تقصر جهودها على استدراج الأموال المخصصة لبناء المدارس والجامعات الوقفية واللا ربحية، ولكن من الذي يعلق الجرس؟

إن مقياس تقدم الأمة يظل كامنًا في مدى اهتمامها بالأخذ بيد الفقير ومساندة المظلوم، وإن توفير تعلم جيد لغير القادرين عليه يعد أفضل ما يمكن تقديمه للعناصر الضعيفة في المجتمع.

### ٧ - التعليم الأهلي:

السؤال المباشر الذي يفرض نفسه علينا هو: هل يمكن للتعليم الأهلي أن يشكل الرافعة لمجال التعليم عامة ؟ وأن يصبح المخرج من حالة الارتباك التي يشعر بها معظم من يعمل في حقل التعليم؟

**للجواب على هذا السؤال أقول باختصار:**

**أ - تنوع أحوال الناس ورغباتهم يتطلب وجود مدارس وجامعات مملوكة للأهالي،** ونحن نعرف أن التعليم الأهلي يملك من المرونة في النظم ما يساعده على التواؤم مع حاجات سوق العمل، كما أن التعليم الأهلي ليس مثقلًا بالاعتبارات السياسية والاجتماعية التي يحملها التعليم الحكومي، وهو إلى جانب هذا وذاك يملك المال الذي يمكنه من تطوير مؤسساته والارتقاء بها على نحو سلس وسريع.. لكن علينا أن نتساءل بعد هذا: هل ما ذكرناه من ميزات يعني أن التعليم الأهلي قادر بالضرورة على أن يكون الرائد والأستاذ في تطوير التعليم على نحو عام؟

**ب - نقطة الضعف الأساسية في التعليم الأهلي هي أنه يقوم في الأساس على ( نظام التجارة ) وهو نظام لا يملك بطبعه ما يكفي من الحساسية الوطنية للقيام بما يجب القيام به،** كما أنه يقوم على المغالبة والمنافسة، وقدرته على الالتزام بالقيم والمبادئ محدودة، وهو مع كل هذا نظام غلاب وطاغٍ، لا يكاد يتصادم مع أي نظام ثقافي آخر إلا غلبه، ومن هنا فإن التعليم الأهلي يظلّ في معاناة شديدة تجاه الحفاظ على الأهداف المعلنة التي قام من أجل تحقيقها.

**ج - الحكومة هي الجهة الوحيدة القادرة على دفع التعليم الأهلي نحو الارتقاء في الأداء وتقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة،** وهذا يمكن أن يتم من خلال

عدد من الأمور؛ منها:

- دعم التعليم الأهلي من خلال تمليكه الأرض التي سيقيم عليها منشآته ومرافقه المختلفة مجانًا أو بأسعار رمزية.

- الإسهام في تخفيف الأعباء المالية عن الأهالي من خلال تقديم معونة مجزية للمدارس لا تقل عن ( ٤٠٪ ) من تكلفة دراسة الطالب في المدارس الحكومية.

- في مقابل هذا لا بد من معايير لجودة الأداء وجودة البيئة التعليمية، وعلى الحكومة أن تراقب أداء التعليم الأهلي عن كثب، وأن تراقب وجوه أدائه دون أي تساهل مع المخالفين.

- تصنيف المدارس كما تم تصنيف الفنادق والأندية الرياضية، إن تصنيف المدارس إلى ( أ ) و( ب ) و( ج ) و( د ) سوف يدفع بالمدارس إلى السعي للانتقال من مرتبة إلى أخرى، كما أنه سيساعد الأهالي على اختيار المدارس الأفضل لتعليم أبنائهم وبناتهم، كما أنه سيساعدهم على وضع أموالهم في المكان الصحيح.

- شي جيد أن تقوم الحكومة والجمعيات الخيرية بامتلاك جزء من أسهم المدارس الأهلية بغية المشاركة في إدارتها والتخفيف من جنوحها نحو تكديس الأرباح وتعظيمها بعيدًا عن الأهداف النبيلة لهذه المهنة السامية.

- تستطيع الحكومة من خلال الإشراف على التعليم الأهلي ودعمه أن تخدم سوق العمل من خلال تركيز مساعداتها للجامعات التي تدرس التخصصات التي تحتاج إليها الدولة في تنفيذ خططها التنموية والحضارية، وهذا شيء مهم جدًّا.

إنني أشعر أنني لم أوفِّ هذا المجال المهم حقه من البحث والتنظير، ولكن ما لا يدرك كله، لا يترك جله.

## التربية المنتجة

أستطيع القول: إن النهضة الحضارية تظل شيئًا غير ممكن من غير نهضة تربوية شاملة، كما أستطيع القول أيضًا: إن التخلف الحضاري هو في الأساس تخلف تربوي أو إخفاق في جهود المربين. تنبع أهمية التربية من كونها أشبه بإعادة صياغة الفرد؛ حيث يتم من خلالها استكمال بشريته وتكوينه الإنساني، ولهذا قيل: ( إن ولد إنسان لا يصبح إنسانًا إلا إذا رباه إنسان ).

على مدار التاريخ كان العمل التربوي عملًا شاقًا وغير مضمون النتائج مهما كانت براعة المربي. والسبب هو عدم امتلاكه السيطرة على المؤثرات في شخصية من يربيه، كما أن تمتع الطفل بالطلاقة الروحية وحرية الإرادة تجعل ردود أفعاله غير منضبطة بضابط محدد، وعلى مدار التاريخ أيضًا كان اللجوء إلى التربية في حل المشكلات هو آخر ما يخطر في البال، وكان أكثر ما نفزع إليه في ذلك هو استخدام القوة أولًا وسن المزيد من القوانين ثانيًا.

استخدام القوة كان - وما زال - يؤدي عبر القهر والكبت إلى ستر المشكلات وتأجيلها، مما يعني المزيد من تفاقمها، أما سن المزيد من القوانين فقد دل ما لا يحصى من التجارب والمشاهدات على أنه غير فعال ما لم يُعزز ويُدعم بصوت أخلاقي، وما لم يقم على أساس من قناعات الناس وعقائدهم، وهذا هو السر في أن كثيرًا من الدول أخفقت من منع مساجينها من تناول المخدرات مع أنهم في قبضتها، فكيف تستطيع منع مجتمع طويل عريض من ذلك. إنني أقول بصراحة تامة: إن القوانين التي لا تُدعم بالتربية الخلقية العميقة والمستمرة هي قوانين عارية، وهي تؤذي المجتمع أكثر مما تنفعه؛ لذلك فإما أن تُدعم، وإما أن توضع جانبًا.

- التربية عملية اجتماعية في الأساس، يتولى مسؤوليتها الكبرى الأسرة والمدرسة والإعلام والمجتمع عامة، وهي عملية تفاعلية تكيفية يعبر المربي من خلالها عن حاجات الفرد وحاجات المجتمع، حيث يتم توضيح ما يريده المجتمع من المربي، كما يتم تعزيز الخصائص الذاتية لديه حتى يكون إنسانًا مستقلًّا يسهم فيما بعد في إصلاح مجتمعه. المربي الجيد هو الذي ينجح في دمج من يربيه في المجتمع دون أن يجور على ما يشكل جوهر شخصيته على صعيد الطموحات والإمكانات، وإن الكمال في هذا شيء نطلبه، ولا ندركه.

### لماذا نربي؟

من المهم جدًّا وقبل الخوض في أي تفاصيل تربوية أن نحدد الأهداف الكبرى التي نسعى إلى تحقيقها من وراء الجهود المضنية التي نبذلها في تربية الأبناء، وأعتقد أنه يمكن القول: إن الأهداف التربوية لأمة الإسلام منحصرة في ثلاثة أهداف هي:

١ - صلاح الأبناء واستقامتهم بالمقاييس الشرعية.

٢ - نجاحهم في الحياة وتأهيلهم لكسب رزقهم بكرامة ويسر.

٣ - تعويدهم المشاركة في الإصلاح والإسهام في إثراء الحياة العامة وحمل بعض أعباء الوطن.

إن تحديد الأهداف الكبرى لجهودنا التربوية على هذا النحو يوجه جهدنا التربوي ويرسم ملامحه العامة.

### أسس النجاح التربوي:

**أ - ثقافة تربوية جيدة:**

كثيرًا ما اعتقدَ الناس بأن التربية عبارة عن تقليد لأسلوب الآباء والأجداد؛ ولهذا فإن الحرص على التزود بالثقافة التربوية كان شبه معدوم، والحقيقة أن جمود الحياة العامة وبطء حركة التغيير يشفعان لذلك، أما اليوم فإن التحولات الاجتماعية والحضارية تأخذ شكل الانفجار، كما أن الغزو الثقافي تحول من التأثير في النخب إلى التأثير في كل فئات الشعب، وهذا يتطلب تجديدًا مستمرًّا في الأساليب التربوية وفي تحديد ما يحتاجه صلاح الأبناء ونجاحهم من قيم ومفاهيم ومهارات وزاد معرفي وعلمي. جيلنا محظوظ؛ حيث إننا نجد الكثير والكثير من مصادر اكتساب الثقافة التربوية، فبضغطة زر نستطيع معرفة كل ما نبحث عنه في الشأن التربوي!

إذن لماذا نجد أن معظم الآباء والأمهات يرتكبون الأخطاء الفاحشة في تربية أبنائهم؟

الجواب يكمن في ضعف الاهتمام الناتج من ضعف الفهم لخطورة الجهل في هذا المقام !.

**ب - بيئة تربوية ملائمة:**

النجاح - في تربية الأبناء - مدين على نحو جوهري للبيئة المنزلية التي يوفرها الأبوان؛ إذ إن التربية في جوهرها هي تفاعل الطفل مع ما يعايشه من بشر وأشياء ومعطيات. هذا التفاعل يتم بطريقة صامتة وبطيئة، ولهذا فإن الجهد الأساسي يتركز على جعل ما يراه ويسمعه الطفل مناسبًا لنموه وصلاحه، وعماد البيئة التربوية الجيدة أبوان متفاهمان ومتحابان يكمل أحدهما الآخر، وبما أن الطفل يعتقد في الكبار الكمال فهو يحاول تقليدهم، ولذا فإن من المهم ألا تكون هناك فجوة كبيرة بين ما يقوله الأبوان والإخوة الكبار، وبين ما يفعلونه. إن تربيتنا ستكون جيدة حين

نكون نحن أشخاصًا جيدين. ولهذا كان للأسوة الحسنة والقدوة الصالحة تأثير كبير في صلاح الأبناء ونجاحهم. البيئة الجيدة بيئة يسودها الأمن والاحترام المتبادل والتعاطف وتقدير من يعيشون فيها لظروف بعضهم، كما أنها بيئة هادئة حيث يندر وجود التهديد أو الصراخ من قبل الكبار والصغار.

ولا شك أن أهم ما يحتاجه الصغار في بيوتهم هو صلاح الأبوين ونجاحهما في الحياة، كل في مجال عمله واختصاصه؛ ولهذا فإن صلاح الآباء ونجاحهم في أعمالهم هو نجاح لهم ولذراريهم، وربما امتدت آثار ذلك النجاح إلى قرون عدة.

**ج - فهم متطلبات المستقبل:**

هذه نقطة في غاية الأهمية، فنحن لا نربي صغارنا من أجل العيش في زماننا، وإنما من أجل العيش في زمان آخر مختلف، فعشرون سنة في عصرنا تعدل في حجم التجديدات التي تشهدها أكثر من مئتي سنة قبل ثلاثة قرون، وذلك بسبب التطور التقني وتوسع آفاق العيش وتواصل دول العالم بعضها مع بعض على نحو لم يكن في الإمكان مجرد تخيله... السؤال الذي يطرح نفسه هو: كيف يمكن للأسرة أن تدرك نوعية ما ينبغي تهيئة أبنائها له على الصعيد الشخصي وعلى صعيد العلاقات والعمل؟

علينا أن نقول في البداية: إن ما هو كائن بعد عشر سنوات أو عشرين سنة هو غيب استأثر الله تعالى بعلمه، وهذا أوضح ما يكون على صعيد التفاصيل، أما على مستوى الاتجاه العام فمن الواضح أن العولمة تتعمق في حياة الأمم، وهي تنشر ثقافة الجودة والفاعلية والرفاهية والمنافسة واللهو والأنانية وانحسار الاهتمامات وتركيزها في أضيق نطاق.. ومع أن كل الأمم تحاول الاحتفاظ بخصوصياتها - ولا سيما أمة الإسلام - إلا أن من الواضح سيطرة أسلوب الحياة الغربية وسيطرة نظم الدول المتقدمة على مجريات كثير من الأمور في معظم أنحاء المعمورة، وفي اعتقادي أن ما يحتاجه أبناؤنا اليوم وفي المستقبل يكاد ينحصر في مجالين أساسيين:

**الأول**: هو المجال القيمي والأخلاقي..

**الثاني**: هو مجال العمل والإبداع فيه والفاعلية والأداء الممتاز.

وهذا تفصيل سريع لذلك:

**- الهوية الأخلاقية:**

**نقصد بالهوية:** مجموعة السمات والخصائص التي تميز الإنسان المسلم على الصعيد القيمي والأخلاقي، وتستمر في شعوره وسلوكه على الرغم من الظروف المحيطة به والتطورات التي يعايشها، وينبغي أن نقول هنا: إن مكونات الهوية الأخلاقية تشتمل على ثلاثة عناصر أساسية: المعرفة الأخلاقية والميول والمشاعر ثم التصرفات والسلوكيات الأخلاقية:

**أ - المعرفة الخلقية:** نعني بالمعرفة الخلقية أن يكون لدى الطفل وعي ومعرفة بأهم القيم التي ينبغي أن تتجسد في سلوكه ومواقفه وعلاقاته بالآخرين، وهذه القيم منها ما هو شخصي؛ مثل: الأمانة والإخلاص والشجاعة الأدبية والانضباط الذاتي والاتزان والدفاع عن المعتقدات الشخصية والتصرف بمسؤولية والسعي إلى الكمال.. ومنها ما له بعد اجتماعي مثل الإنصاف والتواضع ومعاملة جميع الناس على أساس قيم واحدة والاستماع للمحاور بعناية وعدم استغلال أخطاء الناس لغايات شخصية، بالإضافة إلى اللطف والمشاركة ومراعاة المشاعر والمساعدة عند الحاجة وتقدير الظروف التي يمر بها الآخرون.. إكساب الطفل هذه المعارف القيمة يحتاج إلى صبر من الوالدين، وإلى تشجيع ومتابعة في التعليم وإبداء الملاحظات حول ما يخل بشيء من ذلك بدأب وبطرق غير مباشرة.

**ب - المشاعر والميول الأخلاقية:** عليَّ أن أقول ابتداءً: إن الطفل حين يولد يكون مجردًا من المشاعر والعواطف، ومن خلال المعايشة والتربية يمتص من بيئته ومحيطه ما هو سائد من المشاعر والميول. ولعلي أقول أيضًا: إن الوعي الأخلاقي، أو المعرفة العميقة بالقيم الخلقية هي الطريق الأساسي لتكوين المشاعر الشخصية لدى الأبناء، وحين تتحول الفكرة إلى شعور، فإن هذا يعني أنها تجاوزت الممانعة الذاتية، وصارت جزءًا من البنية النفسية العميقة، ونقصد بالعواطف والميول هنا أمورًا من نحو: حب الفضيلة وحب الخير للناس، واليقظة الشعورية تجاه المنكرات والأخطاء، وتقدير الذات والثقة بالنفس، واتخاذ نموذج أعلى للاقتداء، والدخول إلى عالم الناجحين ومحاولة القيام بأعمالهم، بالإضافة إلى تقدير الاستقامة بالمفهوم الشرعي.. هذه المشاعر تشكل البنية التحتية للسلوك القويم، ووجودها لدى الإنسان دليل نجاح مربيه في تربيته، ودليل على التمتع بقدر جيد من الفكر الناضج.

ج - **السلوك الأخلاقي**: هو مجموعة العادات والتصرفات والمواقف اليومية لأي واحد منَّا، والسلوك الأخلاقي في الحقيقة هو ثمرة المعرفة والمشاعر والميول الأخلاقية، وكثير من أحكام الشرع الحنيف منوط بالسلوك، وليس بالخواطر والميول والأمنيات. إن المستقيم أخلاقيًا يكافح شهواته وأهواءه، ويقاوم المغريات التي تعترض سبيله من أجل البقاء على الطريق المستقيم، وهذه الوضعية هي وضعية جهاد أكبر، وفيها مرضاة للبارئ ﷻ.

صاحب السلوك الأخلاقي يحاول أن يجعل من الاستجابة للآمر الأخلاقي عادة له، أي إن عاداته تكون حميدة وفاضلة، وهذا هو النصر الحقيقي في هذه الحياة، أضف إلى هذا أن صاحب السلوك الأخلاقي يدير تصرفاته اليومية لتكون أخلاقية، فهو يُقدِم على بعض الأمور، ويُحجِم عن أخرى، ويتكلم أحيانًا، ويسكت في أحيان أخرى، كما أنه يُعرض عن أشياء، ويهتم بأخرى... إنه يراقب تصرفاته، ويزين كل خطوة من خطواته بغية الحفاظ على توازنه الأخلاقي.

إن اكتساب العادات الجديدة يحتاج إلى وقت قد يمتد إلى شهر من المجاهدة، وإن على الأسرة والمدرسة أن تدرب الصغار على ذلك.

- **الفاعلية والإبداع**:

هذا هو الأمر الثاني الذي يُطلب من المربين الاهتمام به من أجل تلبية حاجات المستقبل. الفاعلية تعني - فيما تعنيه - القدرة على زيادة الإنتاجية الشخصية من خلال الاستثمار الأمثل للإمكانات والفرص المتاحة، إن الإنسان الفعال يستفيد من وقته ومواهبه وعلاقاته والظروف المحيطة على نحو أفضل بكثير مما يفعله الإنسان العادي أو الكسول.

لعل من أهم ما ينبغي تنشئة الصغار عليه من سمات الأشخاص الفعالين الآتي:

- التفكير الموضوعي والاعتدال في تقدير الفرص والمخاطر.
- القدرة على بناء علاقات جيدة مع الآخرين من خلال الخلق الحسن وفهم الأرضيات والمصالح المشتركة وتفهم الظروف والحيثيات التي تحيط بهم.
- المبادرة والتمتع بالروح القيادية وعدم انتظار الآخرين.
- التفاؤل والتفكير الإيجابي والثقة بالمستقبل.

- التكيف والمرونة والقدرة على العمل في الظروف الصعبة.

- إدارة الوقت بكفاءة والتخلص من أوقات الفراغ من خلال وجود البرامج والأهداف الواضحة.

- إن كل هذه الصفات قد يكتسبها الطفل لأنه يعيش في أسرة عظيمة، لكن أعتقد أن تلقي العلم في مدارس وجامعات ممتازة هو الطريق الأمثل لذلك، وهذا ما يجب الاهتمام بإيجاده.

مع التربية على الفاعلية والأداء الرفيع لا بد من تربية الأبناء على أن يكونوا أشخاصًا مبدعين في أعمالهم، فالمستقبل سيكون - واللَّه أعلم - لأولئك الذين يطرحون الأفكار الجديدة، ويملكون القدرة على تطوير الأشياء وحل المشكلات. إن الإبداع يكتسب أهمية متزايدة كل يوم تشرق فيه الشمس؛ حيث يمكن لاكتشاف صغير أن يعود بالنفع على مئات الملايين من الناس، ويغيّر حياة صاحبه بالتالي تغييرًا جذريًا.

من المهم هنا أن أوضح أن الإبداع ليس مرادفًا للذكاء، فعدم الاهتمام بالمواهب أدى إلى أن يكون لدينا الكثير من الأذكياء والموهوبين والقليل من المبدعين، كما أن عليَّ أن أقول أيضًا: إن ذكاءً متوسطًا مع بحث واهتمام وتركيز أنفعُ على صعيد الإبداع والاختراع من ذكاء متوهج لم يلق صاحبه العون، ولم يعمل على تثقيف نفسه وتخطيط حياته.

- **التربية على الإبداع:**

يستطيع الآباء والأمهات في المنازل توفير البيئة التي تحتضن الإمكانات الإبداعية لدى صغارهم، وهم يحتاجون أولًا إلى الوعي بذلك، ومعرفة متطلباته، وهي عديدة منها:

١ - يحتاج الإبداع إلى السلام العائلي حيث يسود الود والتفاهم بين أفراد الأسرة، وحيث يغيب عن الأسلوب التربوي الإكراه والتهديد.

٢- منح الطفل أكبر قدر ممكن من الحرية، وجعله يختار أشياءه ومستلزماته المختلفة على حسب رغبته قدر الإمكان.

٣ - جو الدعابة والمَرَح وشعور الطفل بالأريحية والقبول أمور تحفز على الإبداع، وتشجع عليه.

٤ - تشجيع الطفل على تنمية رؤية مستقلة لكثير من أمور الحياة؛ حيث إن التقليد والخوف من التجديد هو العدو الأول للإبداع.

٥ - تعليم الطفل في مدرسة جيدة، توفر تعليمًا ممتازًا، كما توفر بيئة تحترم إمكانات الطفل وتتحدى مستواه الذهني.

إن الاهتمام بمتطلبات المستقبل على الصعيد التربوي يمكن له أن يساعدنا على تطوير معظم أساليبنا التربوية، والتي تحتاج إلى الحماية من الجمود وضيق الأفق والترهل.

* * *
* *
*

## الاقتصاد المزدهر

لم يكن المال هامشيًّا في حياة الناس في أي مرحلة من مراحل التاريخ، وكيف يكون هامشيًّا، ولا بقاء للإنسان من غير الأكل والشرب والدواء والملبس والمسكن، وهذه كلها تحتاج إلى المال، لكن من الملاحظ أنه كلما مضى الناس في سلم الحضارة زادت حاجاتهم، وكثرت المرفهات التي تنقلب في حسّ الناس إلى أشياء أساسية لا يُستغنى عنها، وهذا يتطلب المزيد من المال، بل إن من الواضح أنه مع التحضر تختفي بالتدريج الأشياء المجانية، ويصبح انعدام المال مصدر شلل تام لمعظم الناس. علينا أن نضيف إلى هذا أن العولمة والتقدم التقني وسكنى المدن قد جعلت الناس أكثر دنيوية وأكثر إقبالًا على العبِّ من المتع والملذات، مما يجعل المال أكثر محورية في حياة الجميع.

إن المعروض من المال أقل من المطلوب، ويظل كذلك بسبب شغف الناس غير المحدود بامتلاك ثروات غير محدودة، إلا أن التجربة تدل على أن المزيد من الأنشطة الروحية والدعوية والاجتماعية يقلل الطلب على المال؛ حيث إن من وظائف المال تحقيق الذات والشعور بالرضا، وهذه الأنشطة تؤمِّن ذلك.

إن مما يؤخذ على كثير من الكتاب في أدبيات التنمية أنهم ركزوا على ( التنمية الاقتصادية ) على نحو مبالغ فيه، على حين أنهم لم يتوقفوا كثيرًا عند التنمية الأخلاقية والتنمية الفكرية وتنمية الشخصية على نحوٍ عام، وفي هذا خلل واضح؛ إذ إن الذي ثبت أن حاجة التقدم النهضوي إلى نوعية الإنسان أكبر من حاجته إلى فوائض الأموال والأدوات، ومهما يكن من أمر فإن تحقيق ازدهار اقتصادي واضح يشكل مطلبًا قويًّا للجماهير العريضة، ولن تستطيع أي حكومة اليوم أن تنال ثقة شعبها ما لم تعمل على تحسين مستوى الدخل ومعالجة أزمة البطالة ورفع مستوى الخدمات العامة.

إن ما كتب حول الازدهار الاقتصادي وعوامله أوسع بكثير من أن يحاط به، ومن ثم فإني سأشير إشارات سريعة إلى ما أعده جوهريًّا في هذا الشأن، وذلك عبر المفردات التالية:

## ما الازدهار الاقتصادي؟

يمر الاقتصاد في جميع العالم بمراحل ازدهار ومراحل ركود، بل إن هناك دورات اقتصادية معروفة لدى الاقتصاديين.

الازدهار الاقتصادي حالة يرتفع فيها متوسط نصيب الفرد من الدخل الوطني، وهذا يحدث حين تكون نسبة نمو الاقتصاد في السنة أكبر من نسبة الزيادة السكانية، كما لو كانت نسبة الزيادة السكانية سنويًّا ( ٢٪ ) وكانت نسبة نمو الدخل الوطني ( ٥٪ ). ومن المعروف أن الزيادة السكانية في العالم الإسلامي مرتفعة جدًّا إذا ما قورنت بنسب الزيادة السكانية في معظم دول العالم، مما يعني أن الازدهار الاقتصادي لدينا يحتاج إلى جهد أكبر واستثمار أضخم.

## قيم تساعد على الازدهار:

الإنسان هو العنصر الأساسي في التنمية الاقتصادية، وقد دلت الخبرات المتراكمة على نحو ظاهر أن المال ليس هو المعضلة الأساسية في النمو، وإنما الأفكار والمفاهيم التي يرى الناس من خلالها أنفسهم والعالمَ من حولهم، وأيضًا الأخلاق التي تضبط سلوكهم وعلاقاتهم وتحدد ردود أفعالهم، أي الثقافة الشعبية السائدة.

ولعلي أشير هنا إلى بعض المعتقدات والقيم التي تمثّل ما ذكرته:

١ - **الإيمان بوجود إمكانية للتقدم وتحسين ظروف المعيشة شرط أساسي لحدوثه،** وإنما نقول هذا لأن بعض الأرقام يشير إلى أن العرب الذين يعيشون تحت خط الفقر يتزايدون؛ حيث بلغت نسبة الذين يتقاضون دولارًا واحدًا في اليوم نحوًا من ( ٢٢٪ )، ونسبة الذين يتقاضون ما بين دولارين وخمسة دولارات يوميًّا في حدود ( ٥٢٪ ) أي أكثر من ( ١٦٥ ) مليون نسمة. ولا نعتقد أن حال معظم المسلمين أفضل من حال معظم العرب.

المشكل الأساسي في الفقر أنه يشكل مع الأمية وانخفاض مستوى التعليم والاستبداد السياسي شبكة من الخيوط العنكبوتية التي تكبل الفرد، وتفقده الأمل، وتضعف الروح المعنوية لديه، وتجعله عبارة عن إنسان محبط ومرتبك ومهزوم، مما يدفعه في اتجاه العنف والعطالة والكلالة..

أنا أعرف أن العمل هو الذي يأتي بالأمل، وهذه هي الحالة المثالية، لكن يمكن

لنا بث روح التفاؤل في الناس من خلال استحضار بعض النصوص، على نحو ما نجده من قول اللَّه تعالى: ﴿ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ [ الطلاق: ٧ ]. وقوله سبحانه: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [ الشرح: ٥، ٦ ].

ومن المهم بمكان استعراض التجارب الناجحة للأفراد والشركات والحكومات، وهي بحمد اللَّه كثيرة وكثيرة جدًّا!

**٢ - لدينا مشكلة في ثقافة العلاقة بالمال؛ حيث إن معظم المسلمين يعتقدون أن المال الذي في أيديهم هو مالهم الخاص، وهو في نظرهم من أجل التمتع بالمرفهات والحصول على النفوذ الاجتماعي، وتوريثه للأولاد**، ولا بأس في أن يكنز الواحد منهم الكثير من المال في محيط من الفقر والبؤس... هذه الثقافة يجب أن تتغير. المال مال اللَّه ونحن مستأمنون عليه ومستخلفون فيه، كما قال سبحانه: ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ [ الحديد: ٧ ]. على المسلم أن يتقيد بتعليمات الشريعة في التصرف بالمال، ومن تلك التعليمات:

- الغني حصل على المال بمعونة اللَّه وتوفيقه وفضله.
- على المسلم أن يؤدي زكاة ماله، ويكثر من الصدقة، ويصل رحمه، ويغيث الملهوف، ويعين ابن السبيل.
- المال الذي نملكه حقيقة هو المال الذي ننفقه في سبيل اللَّه؛ لأننا نجد أجره عند اللَّه تعالى وما نستهلكه في المأكل والمسكن.. ليس من أموالنا.
- كل ما ينفقه المؤمن في سبيل اللَّه تعالى يعوض عليه في الدنيا بطرق عديدة، كدفع البلاء وتهيئة فرص كبيرة للكسب ومضاعفة الثروة..
- على المسلم أن يتبع سياسة حسن التدبير في مصروفاته الشخصية، وأن يكون كريمًا سمحًا في الصدقة ومساعدة المجتمع.
- للبذل في سبيل اللَّه نكهة خاصة ألذ بكثير من لذة كسب مال جديد.
- استعراض صور من سخاء المسلمين الأوائل بالإضافة إلى استعراض ما شيده أثرياء الغرب من مؤسسات وجامعات خيرية عملاقة...

**٣ - قالوا: السياسة أكبر من أن تُترك للسياسيين، وأقول: كذلك الاقتصاد هو أكبر**

**من أن يترك للاقتصاديين؛ حيث إن الذي تعلمناه من التاريخ يشير إلى أن نجاح الكثير من الأعمال العملاقة مرهون بمشاركة الجماهير فيها على نحو واسع؛** لأن إمكانات الشعوب أكبر من إمكانات الحكومات على نحو لا يسمح بأي مقارنة.

المطلوب على هذا الصعيد أمران:

**الأول**: هو زيادة فعالية الأفراد في التنمية الاقتصادية، وذلك من خلال ترسيخ ثقافة التطوع لدى الرجال والنساء؛ حيث إن من المهم أن يشعر كل مواطن أن عليه أن يحمل شيئًا من أعباء الوطن من خلال الإحساس بأوجاع مواطنيه ومشكلاتهم، ومن خلال الإسهام في بناء المرافق ذات النفع العام، وهذه المهمة من واجبات جهات التأثير الثلاث: الأسرة والمدرسة ووسائل الإعلام. إن المواطنين في الدول المتقدمة يقدمون خدمات تطوعية تقدر بعشرات مليارات الدولارات سنويًا، وهي تشكل رافدًا أساسيًا للاقتصاد، وتخفف من أعباء الدولة تجاه المجتمع.

**الثاني**: تشجيع المواطنين على طرح المبادرات وتشكيل الفرق وبناء المؤسسات التطوعية، فالعمل الجماعي فيه بركة، وله جاذبية، وهو يطلق طاقات الأفراد، ويحمسهم على العمل، وأتمنى أن يكون لدينا في كل مؤسسة حكومية وفي كل شركة تجارية مكتب لاستقطاب المتطوعين، وأن يكون لدينا مؤسسات ليس لها من عمل سوى طرح المبادرات التطوعية والتسويق لها.

إن العمل التطوعي يشكل قيمة عظمى في نظر الإسلام، وهو يطهر الفرد من كثير من الأمراض النفسية والخلقية، ويشعره بالرفاهية الروحية، وإن سكان أي مدينة يكونون من غير الاهتمام بالشأن العام عبارة عن حشد من الأجساد، والعمل التطوعي وحده هو الذي يحولهم إلى مواطنين.

إن الازدهار الاقتصادي لا يكمن في زيادة الدخل فحسب، بل إنه يعني كذلك الارتقاء بنوعية الحياة ومساعدة الناس على الاحتفاظ بالقيم الجوهرية التي يؤمنون بها، والإحساس بأن للحياة معنًى يستحق التضحية.

## كبح جماح الاستهلاك:

يقولون: إن البريطاني يقول: أنا أسكن في بيت واسع مساحته أكثر من ( ٩٥ ) مترًا مربعًا، على حين أن العربي يقول: أسكن في بيت ضيق مساحته أقل من ( ٢٠٠ )

متر مربع. هذا القول يؤشر إلى الموقف الاستهلاكي لكثير من العرب والمسلمين. الإسلام لا يدعو إلى التقتير، كما أنه لا يتهاون مع الإسراف والتبذير، وإنما يدعو إلى التوسط والاعتدال - كما هو شأنه في كل شؤون الحياة - وفي هذا يقول اللّٰه تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ [ الإسراء: ٢٩ ]. ويقول: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [ الفرقان: ٦٧ ] . إن الإنسان مبتلى بالغنى والفقر، وهناك شواهد كثيرة تدل على أن الناجحين في ابتلاء الفقر أكثر من الناجحين في ابتلاء الغنى؛ حيث إن المال يجعل الناس أكثر دنيوية وأقل إحساسًا بواجباتهم الدينية والاجتماعية، ولكل قاعدة شواذها، كما نعرف. ولعلي أشير في هذه القضية المهمة إلى عدد من الأمور الأساسية:

١ - **على مدار التاريخ كانت الورش والمصانع تنتج ما يسد حاجة الناس**، وكان ذلك هو الشيء المنطقي والطبيعي، لكن الأمر قد تغير منذ عقود حيث صار على الناس أن يستهلكوا أكثر وأكثر حتى تستمر المصانع في حركتها، وحتى يتم فتح مصانع جديدة، وقد تكفلت صناعة الإعلان الضخمة بفتح شهية الناس على استهلاك ما لا يحتاجون إليه وتزيين شراء ما قد يلحق بهم الضرر! إن العالم ينفق اليوم ما يزيد على ( ٧٠٠ ) مليار دولار سنويًا على الدعاية والإعلان، وقد نجح فعلًا في جعل مئات الملايين من الناس يشعرون بالعوز إلى اقتناء واستهلاك ما يصدَّر إليهم من أنحاء الأرض، أي أنه تم إيجاد تبعية جديدة للدول الصناعية! وتقدم أجهزة ( الجوال ) نموذجًا لذلك.

إن الفراغ الروحي والفكري لدى كثير من الشباب دفعهم إلى المزيد من الاستهلاك بوصفه وسيلة لشعورهم بالتميز أو لفت النظر إليهم من قبل الأقران والزملاء، أو التعويض عن نقص اجتماعي معين.. وقد كان للمرأة نصيب الأسد من ذلك!

٢ - **نحن مكلفون بعمارة الأرض والانتفاع بخيراتها وفق منهج اللّٰه الذي وضعه للعمل به، وهو منهج سمحٌ أحل الطيبات**، وجعل الأصل في الأشياء الإباحة، وحرم الخبائث ونهى عن تبديد النعم، فالأرض وكنوزها ليست مسخّرة لهذا الجيل وحده، وإنما هي مسخّرة لكل الأجيال القادمة، وإن في استنفاد إمكاناتها وتلويثها على النحو الحاصل الآن يشكل خروجًا سافرًا على إرشادات المالك الكريم ﷻ.

إن الإسراف حرام. وقد وصف اللّٰه تعالى المبذرين بأشنع الأوصاف حين

قال: ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾ [ الإسراء: ٢٧ ]. إن الإسراف يكون في تجاوز حد الاعتدال كالذي يفتح صنبور الماء أثناء الوضوء فوق الحاجة؛ وكالذي يترك الأنوار مضاءة بعد خروجه من مكتبه... أما التبذير، فإنه يكون في إنفاق المال في غير وجهه، مثل كل ما ينفَق في الخبائث: المخدرات والخمور والدخان، وكل ما ينفق في معصية اللّه، وأخشى أن يكون التوسع في بناء ما لا يُحتاج إلى سكناه من التبذير حيث تجد أسرة مكونة من خمسة أشخاص ولديها قصر فيه ثلاثون غرفة..!

**٣ - السؤال الملحّ هو: كيف نرشِّد الاستهلاك؟ وكيف نقاوم شهوة التسوق والاقتناء؟**

- الأسرة هي المربي والمعلم الأول، وعليها تقع مسؤولية غرس ثقافة مقاومة الهدر وشهية التوسع في الاستهلاك، وذلك من خلال البيئة التي توفرها لنشأة الصغار، وتتميز سلوكيات من يعيش في هذه البيئة بما يلي:

- أبوان لا يتوسعان في شراء السلع الترفية، ولا يركضان خلف ( الماركات ) الأجنبية، ويعطيان للمعنى والمبدأ القيمة التي يستحقانها.

- المال في نظر الأبوين وسيلة لقضاء الحاجات، وليس لكسب النفوذ الاجتماعي أو مجاراة الأثرياء والمبذرين.

- أسرة تتبع في تسوقها مبدأ: ( استغناؤك عن الشيء خير من استغنائك به ) فلا تعمد إلى تكديس أشياء لَسْتَ في حاجة إليها.

- الالتزام بعدم إلقاء أي أطعمة في القمامة، حيث يكون ما يطبخ على قدر الحاجة، وإذا فاض طعام في وليمة أو مناسبة، فإنه يعطى للفقراء.

- تنبيه دائم من الأبوين على أهمية ترشيد استخدام الماء والكهرباء، ولو كانا مجانيين أو كانت تكاليفهما رخيصة.

- يهتم الأبوان بتوفير شيء من دخلهما للطوارئ وشيء لإعادة استثماره في مشروع صغير يعود على الأسرة بالنفع.

- الصدقة وصلة الرحم والإسهام في بناء المرافق العامة عادة ثابتة وراسخة من عادات الأسرة.

- لا تشتري الأسرة أي شيء بناء على تقليد أو محاكاة لقريب أو بعيد، وإنما بعد دراسة الحاجة إليه ومدى ملاءمته لها.

- الأطفال يحتاجون إلى تربية عصامية يفهمون منها أن طرق المجد ليست مفروشة بالورود، وأن الرقي الحضاري يحتاج إلى مثابرة وجدية وتعب. الحكمة الذهبية في مساعدة الأبناء تقول: لا تعطهم أكثر مما يحتاجون، فتوجد لديهم روح الاتكال والخمول.

## أخلاقيات عمل جديدة:

نحن نعيش في عالم محموم، تشتعل فيه المنافسة بين الأمم والشركات والجامعات والأفراد... وذلك بسبب الانفتاح والتواصل العالمي الذي لم يكن لأحد قبل مئة سنة القدرة على مجرد تخيله، والحقيقة أن الجميع يتنافسون على الزبون الذي يشتري السلع والخدمات، وقوام المنافسة شيئان: تخفيض التكلفة وتحسين الإنتاج وزيادة ميزاته. العالم الإسلامي والعربي يعاني - بدرجات متفاوتة - من ضعف الإنتاجية، حيث تشير بعض الإحصاءات والدراسات إلى أن إنتاجية العامل العربي تمثل سدس مثيلتها في الدول الصناعية، وقد انعكس هذا مع عوامل أخرى على ضعف الناتج القومي لدى معظم الدول الإسلامية.

وعلى سبيل المثال فإن دخل شركة ( إركسون ) يفوق الناتج القومي لدول ( أوبك ) ودخل شركة ( سوني ) يفوق الناتج القومي لدولة مثل ( الباكستان ). لا شك أن لضعف إنتاجية مؤسساتنا وأفرادنا العديد من الأسباب، وإن كنت أعتقد أنه يقف على رأسها ( بيئة العمل ) إذ إنها حين تكون راقية وممتازة ومتقدمة فإنها تجذب إليها الأشخاص الممتازين، وتبعد الكسالى وغير المؤهلين..

أنا هنا أريد أن أتحدث عن أخلاقيات العمل بوصفها شيئًا تسهم في تكوينه الأسرة والمدرسة والإعلام والمؤسسات والشركات والدوائر الحكومية، وذلك من خلال المفردات الآتية:

**١ - أنا على يقين أن ما لدى الشعوب من نقاط تميز وضعف لا يعود إلى موروثات جينية أو خصائص عنصرية،** أي ليس جزءًا من طبيعتها الثابتة، وإنما هو نتاج تربية محددة والعيش في بيئة معينة، أي أنه قابل للتغيير والتطوير، ولكن التغيير الثقافي

يحتاج إلى وقت، لكن استمراره بعد ذلك قد يدوم قرونًا.

٢ - **علينا أن نكون موضوعيين ونقول: إن ضعف إنتاجية كثير من الشباب المسلم يعود إلى سوء الظروف التي يعيشون فيها وضعف التعليم الذي تلقوه**، وفي إمكاننا أن نلاحظ هنا أمورًا ذات تأثير مباشر في فاعلية الإنسان، ومن تلك الأمور ( الأمية ) - كما أشرت من قبل - حيث تفيد بعض الإحصاءات أن متوسط نسبة الأمية في العالم العربي ما زالت تقترب من ( ٣٠٪ ) من إجمالي عدد السكان، وهذه مشكلة كبرى، لأن الأمي يظل شبه عاجز عن فهم كل الأدبيات الحديثة في عالم الأعمال، كما أنه عاجز عن التفاعل مع أشكال التدريب التي يتم تقديمها للموظفين اليوم. مشكلة أخرى يعاني منها كثير من القوى العاملة هي انخفاض المستوى الصحي وانتشار سوء التغذية وقلة المياه الصالحة للشرب، وهذا كله يجعلهم غير لائقين نفسيًّا وصحيًّا لبذل الجهد المكثف، وعلينا ألا ننسى هنا السكن العشوائي الذي يقترب في كثير من المدن من نحو ( ٥٠٪ ) ففي السكن العشوائي يكون كل شيء مغايرًا للمطلوب ومصدرًا للإزعاج، وهذا يعني أن تطور الحياة العامة يكاد يكون شرطًا لتحسين الفاعلية والإنتاجية وتطوير أخلاقيات العمل، لكن مع هذا فإن الروح المكافحة تستطيع التمرد على المعطيات السيئة والانطلاق في آفاق الازدهار الرحبة.

٣ - **التعليم المستمر والتدريب المتتابع يشكلان أهم مصدر لتطوير أخلاقيات العمل**، وربما كان هذا هو أهم مصدر لتفوق الموظف والعامل الياباني.

إن دراسة أبنائنا في مدارس وجامعات تتمتع بمستوًى عالٍ، وتقدم معرفة متقدمة وحديثة هو البداية، وعلى المؤسسات والشركات بعد ذلك أن تواصل تدريب موظفيها على رأس العمل؛ حيث ثبت أن عدم الاهتمام بذلك سيعني تخلف الموظف عن روح عصره وعقله، وإذا ما حدث تقصير من قبل مدراء العمل، فإن على الموظفين أن يسعوا إلى ذلك خارج أماكن عملهم؛ لأنه يشكل بالنسبة إليهم ضرورة ملحة.

٤ - **ولاء المرء للعمل الذي يكسب منه رزقه، ويقدم من خلاله ذاته للآخرين** شرط من شروط الاهتمام به، والحقيقة أن علينا أن نرسخ ثقافة تقول: إن إنجاز المرء لأعماله وتفوقه في أدائه هو مصدر احترام زملائه له.

في بعض الأحيان ينظر بعض الناس إلى الزميل المجتهد والحريص على أنه مغفل

أو مخدوع أو جاهل بمصلحته، وهذه نظرة مريضة ومدمرة. إن الكسالى والفوضويين والمهملين والجامدين هم دائمًا جزء من المشكلة في أي حقل يعملون فيه، على حين أن الجادّين والمنضبطين والمبدعين هم دائمًا جزء من الحل.

٥ - **من المهم ألا ينظر الواحد منا إلى وظيفته على أنها مصدر للرزق فحسب**، بل هي مصدر لتحقيق الذات والشعور بحلاوة الإنجاز، فالعمل المثمر عطاء وإسهام في تقدم البلد، على حين أن الأجر الذي يتقاضاه هو أخذ واستحواذ وعبء، وبين هذا وذاك فرق كبير.

٦ - **إذا أراد أرباب العمل من موظفيهم وعمالهم أداء ممتازًا**، فلا بد من أن يقدموا لهم المكافآت السخية، وهذا ما يفعله كثير من الشركات الكبرى اليوم. إن من المهم أن يشعر جميع منسوبي الشركة أن مجد شركتهم هو مجد لهم، كما أن نجاحها نجاح لهم. إن من حق من يصنع لك الثروة أن يحيا الحياة الكريمة، وألا يشغل باله بالتفكير في الحصول على حاجاته المختلفة.

٧ - **العلاقة القائمة على الاحترام المتبادل والمشورة وتبادل الأفكار هي العلاقة التي تساعد على التقدم وتحسين الإنتاجية**، وقد ثبت أن الموظفين والعمال لا يتحمسون لتنفيذ القرارات التي لم يستشاروا فيها؛ ولهذا فإن القرارات في مجالات العمل يجب أن تتدفق من أسفل إلى أعلى، ويجب أن يأخذ كل قرار حقه من التداول والإنضاج قبل أن يصبح جزءًا من تعليمات الشركة ونظمها السارية، وإن كثيرًا من الشركات الناجحة تلتزم بذلك، مما ولّد شعورًا بالرضا لدى جميع منسوبيها. إن أفضل القرارات هي تلك القرارات التي يتم اتخاذها بالتوافق والتراضي، وهذا جزء من ثقافة العمل في بلد متقدم ومتحضر جدًّا مثل السويد.

٨ - **المرء يعمل ليعيش، ولا يعيش ليعمل**؛ ولهذا فإن بيئة العمل يجب أن تكون آمنة وممتعة، كما أن من حق الموظف الجاد أن يتمتع بإجازات طويلة وفترات استراحة عديدة أثناء اليوم حتى يحافظ على تألقه الروحي ونشاطه وحيويته، ومن المعروف أن مدراء الشركات في اليابان يحثون موظفيهم على أن يتمتعوا بإجازاتهم على الوجه الأكمل، بل إن بعض الشركات اليابانية خصصت أماكن لممارسة الرياضة وبعض الألعاب الجماعية، لما لذلك من تأثير مباشر في رفع كفاءة العاملين.

**٩ – الدقة في الحضور والانصراف وعدم الانشغال أثناء الدوام بأعمال خارج المهام الموكلة إلى الموظف جزء من حق أرباب العمل على موظفيهم**، وعدم الالتزام بذلك يعني أن الموظف يأكل مال غيره بالباطل، ويطعم أسرته مما لا يحل له، وهذا ما يغفل عنه كثير من الناس مع الأسف!

**١٠ – لدينا جملة من الصفات والممارسات التي ينبغي أن تكون جزءًا من أخلاقيات العمل اليوم؛ ومنها الإتقان والدقة والشعور بالمسؤولية تجاه المهام الموكلة إلى الموظف والقدرة على العمل ضمن فريق، والمثابرة والتعاون والابتكار والتجديد**.. إن توفر هذه الأخلاقيات والسلوكيات نسبي ويختلف من مؤسسة إلى أخرى، لكن من الواضح أن المزيد من الإنتاجية الممتازة يظل متوقفًا على مدى كمال ما أشرنا إليه، وبلوغ ذلك الكمال مسؤولية مشتركة بين العاملين وأرباب العمل.

## مكافحة الفقر:

الفقر والاستبداد والجهل أكثر ثلاث عاهات أصيبت بها الأمة في معظم تاريخها، وهي علل يغذي بعضها بعضًا، وإن الازدهار الاقتصادي يتجسد في العديد من الأمور؛ منها: تحسن مستوى المعيشة وانخفاض نسبة الفقراء في المجتمع.

العالم الإسلامي يملك مساحات واسعة من الأرض، ولديه الكثير من الثروات، ومع ذلك فإن نحوًا من ( ٣٧٪ ) من المسلمين هم تحت خط الفقر! هنا لا بد أن نقرر أن بعض المسلمين أساؤوا فهم بعض النصوص المتعلقة بالعمل والغنى والفقر والكسب والمال، مما أقعدهم عن السعي في طلب الرزق، وقد حدث أن مال الناس إلى الدنيا في فترات من تاريخنا، وكثر فيهم الترف والتبذير، مما دعا بعض العباد إلى الإمعان في الزهد وذم الدنيا والمال.. وقد كان ذلك عبارة عن غلو في مواجهة غلو آخر.

إذا نظرنا في محاسن الغنى ومثالب الفقر فإننا سنجد أن محاسن الغنى أعظم بكثير من إيجابيات الفقر، ويكفي الغني أنه يستطيع حمل أعباء غيره، على حين أن الفقير يبحث عمن يحمل أعباءه، وقد صح عنه ﷺ أنه استعاذ باللَّه تعالى من الفقر حين قال: « **اللهم إني أعوذ بك من الفقر والقلة والذلة..** »(١).

---

(١) أخرجه أحمد وغيره.

كما صح عنه أنه سأل اللّه تعالى الغنى حين قال: « **اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى** »⁽¹⁾.

ودعا لصاحبه وخادمه أنس بن مالك ﷺ بأن يكثر اللّه ماله وولده. وبما أن الفيصل في مسألة تفضيل الغنى على الفقر أو الفقر على الغنى يكون في سلوك الغني والفقير. فقد صح عنه ﷺ أنه قال: « **نعم المال الصالح للرجل الصالح** »⁽²⁾.

حيث لا خلاف في أن من يبدد نعم اللّه تعالى أو يستخدمها في غير وجهها لا يكون في مقام الفقير الصابر المتعفف، كما أن الفقير الساعي إلى كسب رزقه من حرام والمنافق والمداهن لا يكون مثل الغني الشاكر.

**أساليب وأدوات في مكافحة الفقر:**

١ - **لا شك في أن الحكم الراشد العادل الذي يسمح بالنقد،** ويقبل الإصلاح هو بوابة غنى الشعوب، كما أن الحكم المستبد الظالم يكوِّن دائمًا بيئة للفساد المالي والرشوة والسرقة والغش، وهذه الأمور هي المجال الأساسي لحركة الأثرياء اللصوص، ولا تكون حركتهم إلا على حساب الفقراء والضعفاء والمهمَّشين؛ ولهذا فإن محاربة الفقر تظل مرتبطة بالتقدم الإداري والسياسي، وهذا في منتهى الوضوح.

٢ - **حين تنظر إلى مدن الصفيح والسكن العشوائي والأحياء الأشد بؤسًا فإنك ستجد أنها تشكل بيئات مثالية لانتشار الجرائم والمخدرات والدعارة والجهل والفوضى واليأس..** وفي هذه الحال فإن الذي يغلب علينا هو الشعور بالغضب والاحتقار تجاه الشباب المنحرف الذي يقوم بكل تلك الموبقات، وأعتقد أن النظرة المنصفة لهم يجب أن تقوم على أنهم ضحية لظروف لم يختاروها، ولظلامات اجتماعية وسياسات تهميش مقصودة أو غير مقصودة، وبذلك فإنهم يستحقون التعاطف والمعاونة والعمل من أجل إنقاذهم مما هم فيه.

٣ - **دأب العديد من الدول والجمعيات الخيرية على تقديم مساعدات مالية وعينية للفقراء من دون أي قيد أو شرط،** وقد ثبت أن ذلك يشجع الشباب على البطالة والكسل والاتكال؛ ولهذا فإن مساعدة الفقراء ينبغي أن تقوم على مبدأ تعليم الصيد لا تقديم السمكة.

---

(١) أخرجه مسلم.

(٢) رواه ابن حبان وغيره.

إن أكبر مشكلة يعاني منها معظم الفقراء على المستوى النفسي والفكري هي محدودية الطموحات، وانسداد الآفاق، والشعور بالعجز واليأس، بالإضافة إلى الأمية أو انخفاض مستوى التعليم الذي تلقوه، والحل الأساسي لكل هذا يكمن في نظري في أمرين:

**الأول**: تأمين تعليم جيد ورفيع للصغار.

**والثاني**: تأمين تدريب جيد للكبار من أجل إكسابهم مهارة وإعدادهم للانخراط في حرفة أو وظيفة.

في بعض الدول العربية تم تأسيس مراكز لتدريب الشباب على ممارسة بعض المهن، كما تم تقديم العون المالي والفني لبعض المشروعات التي أقامها شباب طامحون، وفي البرازيل تقدم الدولة مساعدات للفقراء بشرط إبقاء أولادهم في المدارس...

إن الدعم الاستراتيجي الذي يمكن أن نقدمه للفقراء يتمثل في مساعدتهم على تعليم أولادهم تعليمًا جيدًا وتأمين ابتعاث للنابهين منهم، وهذا يحتاج إلى مؤسسات وبرامج متخصصة.

٤ – **إن تدخل الحكومة في عالم المال والأعمال كثيرًا ما يثير الجدل،** لكن لدينا العديد من التجارب الناجحة على هذا الصعيد، كما حدث في ماليزيا والبرازيل والمغرب وغيرها..

والحقيقة أن على الحكومات أن تجعل من القضاء على الفقر محورًا يستقطب الكثير من السياسات الاستراتيجية، ويجب أن يقوم دورها على التحفيز وإتاحة الفرص والمساعدة أكثر من أن يقوم على المنع والسيطرة والتحكم، ولعل مما يمكن أن تفعله حكومة مهتمة الآتي:

أ – وصف دقيق لـ ( خط الفقر ) في البلاد وإجراء مسح واسع لعدد الفقراء.

ب – إقامة مجمعات سكنية كبيرة وبيعها للفقراء بسعر التكلفة وبأقساط مريحة من غير فوائد.

ج – الاهتمام بالمناطق الفقيرة وإنشاء المصانع والمشروعات العملاقة فيها من أجل توفير فرص عمل للفقراء.

د - إقامة الجمعيات التعاونية التي يسهم فيها أهل الحي، وتوفير السلع بأسعار منافسة.

هـ - مساعدة الأسر الفقيرة على تعليم أبنائها من خلال تحمل الدولة أعباء التعليم، وتقديم حوافز مالية ترغِّب الأسر الفقيرة في إبقاء أطفالها في المدارس.

و - توفير الماء والكهرباء والمواصلات للمناطق الفقيرة بأسعار رخيصة، واستخدام نظام الضرائب التصاعدية في التقليل من المال المقتطع من مداخيل الفقراء.

ز - منح بعض العقود الحكومية للشركات الصغيرة، وتلك التي توظف أعدادًا كبيرة من العمال.

ح - تشجيع الفقراء على الادخار ومساعدتهم على تملك الأسهم في الشركات الكبرى.

ط - تقديم الدعم الفكري والنفسي للفقراء من خلال برامج متتابعة تستهدف تطوير رؤيتهم لأنفسهم وللحياة.

٥ - **على مدار التاريخ كان لأهل الغنى واليسار دور بارز في مساعدة الفقراء**، وقد قام لدينا بحمد اللَّه عدد كبير من الجمعيات الخيرية التي يمكن أن تؤطر دور الأغنياء وتجعله أكثر فاعلية، وإن البداية تكون بتسهيل الحكومات لسبل إنشاء المؤسسات الخيرية والتطوعية واللاربحية عامة، وأعتقد أن أفضل ما يمكن أن تقدمه الجمعيات الخيرية يتجلى في الآتي:

- توفير التدريب المتنوع للفقراء من أجل الحصول على فرصة عمل.
- بناء المدارس والجامعات اللاربحية وجعل الاستفادة منها مقصورة على أبناء الفقراء.
- توفير المشافي والمستوصفات التي تقدم العلاج المجاني أو المنخفض التكلفة لمن يحتاج إليه من الفقراء.
- العمل على إيجاد الأوقاف التي توفر مددًا مستمرًّا من المال الذي يستفيد منه الفقراء في المجالات المختلفة.

### وسط استثماري جاذب:

للشريعة الغراء في المال عدد من المقاصد، منها حفظه ووضوح حركته والعدل في توزيعه، ومنها تداوله بين أكبر عدد ممكن من الناس، ومن أجل التداول أحل اللَّه البيع والتجارة، وشرع عددًا من العقود مثل المغارسة والمزارعة والسلم والقراض.. ومن أجل التداول الواسع حرَّم اللَّه الربا والاحتكار.

معنى الاستثمار ببساطة هو إضافة طاقات إنتاجية جديدة إلى الأصول الإنتاجية القائمة؛ مثل فتح المصانع والمشروعات الزراعية الجديدة وتحسين البنية التحتية: طرق، مطارات، موانئ، زيادة إمدادات الماء والكهرباء.. ولعلي أشير في هذا الصدد إلى النقاط التالية:

١ - **في معظم دول العالم الإسلامي زيادة سكانية عالية جدًّا،** مما يعني وجود حاجة مستمرة إلى المزيد من فرص العمل، والمزيد من خدمات التعليم والصحة والمواصلات... توفير فرص العمل يحتاج دائمًا إلى المال مع أمور أخرى، والمال له مصدران: استثمارات داخلية وأموال تأتي من الخارج، وتشجيع الاستثمارات الخارجية مبدأ تعمل عليه كل الدول التي تنحو منحى الاقتصاد الحر.

لا شك أن توافد الشركات الأجنبية على أي بلد مسلم لا يخلو من بعض السلبيات مثل مزاحمة المؤسسات والشركات المحلية، وخطف كثير من الفرص بسبب حسن تنظيمها وضخامة رؤوس أموالها، وبسبب ما تملكه من خبرات وكوادر متقدمة، كما أن موظفي الشركات الأجنبية كثيرًا ما يكون لديهم ثقافة وأخلاق وسلوكيات مغايرة لما في المجتمع المحلي من ذلك، مما يؤثر سلبًا على القيم السائدة، هذا كله يجعل بعض الناس ينظرون بعين الريبة والتوجس إلى الاستثمارات الأجنبية، ومعهم في ذلك حق.

لكن من الواضح أننا لا نستطيع الحصول على كل الخيارات، فالواقع أن معظم البلدان العربية والإسلامية في حاجة إلى رأس المال الأجنبي من أجل إيجاد فرص عمل جديدة، ومن أجل توطين الخبرات والتقنيات والنظم المتطورة، ومن أجل إيجاد مساحة وطنية لتقليد المصنوعات التي تنتجها الشركات الوافدة.

٢ - **( رأس المال جبان ) حكمة قديمة وأساسية في مسألة الاستثمار،** والحقيقة

أن رجال الأعمال حين يريدون الاستثمار في بلد أو مجال يفكرون في أمرين جوهريين: أمن رأس المال وأكبر قدر ممكن من الربح، ولا فرق في هذا بين المستثمر الأجنبي والمحلي، وإن كانت شروط المستثمر الأجنبي في هذا أقسى وطموحاته أكبر، وأعتقد أن هذا شيء طبيعي ومشروع. هناك من الحكومات والأفراد من يطلب من رجال الأعمال غض الطرف عما ذكرناه من أجل تقليل البطالة ونفع البلاد، لكن من الجليّ أن كل المناشدات تذهب هباء بسبب مخالفتها لما جبل عليه الإنسان من الحب غير المحدود للمال والاستزادة منه.

٣ - **السؤال الذي يطرح نفسه هو: ما ملامح الوسط الجاذب للاستثمار؟**

أ - **وسط مستقر: والمقصود بالاستقرار هنا هو الاستقرار السياسي والاقتصادي**، وكثيرًا ما يكون الاستقرار السياسي من خلال وجود وفاق بين الحكومة والشعب، مما يؤدي إلى استتباب الأمن والاطمئنان على الأنفس والأموال، وهذا في غاية الأهمية، أما الاستقرار الاقتصادي فإنه يعني في الأساس نسبة تضخم منخفضة تعكس استقرار العملة المحلية، وتشير إلى عدم وجود عجز مالي خارج نطاق المألوف.

إن المستثمرين الأجانب ينظرون إلى التضخم المنخفض على أنه أساس اقتصاد السوق؛ حيث إنه يسمح بعلاقات صناعية وتجارية واضحة ومستقرة.

ب - **تحرير سوق العمل مهم جدًّا في الوسط الاستثماري الجيد**، والمقصود بتحرير سوق العمل هنا عدد من الإجراءات الاقتصادية والإدارية؛ من مثل إخضاع أحوال السوق للعرض والطلب، وتحرير وسهولة توفير العمالة الماهرة من داخل البلاد وخارجها، إلى جانب وجود شفافية عالية في كل العمليات الاقتصادية والبنكية ومعاملات الشركات.

ج - **عدم وجود قيود على حركة الأموال بين الداخل والخارج**، ونستطيع القول: إن تعقيد حركة خروج المال هو الطارد الأول للمستثمرين الأجانب؛ لأنهم يريدون أن يشعروا أنهم قادرون على تحريك أموالهم إلى حيث يكون الاستثمار أفضل. هذا لا يعني عدم رقابة الدولة على ذلك، ولكن يعني أن يبقى ذلك في حدود ما هو موجود في الأسواق العالمية.

د - **سهولة ممارسة التجارة** من خلال تسهيل عمليات الاستيراد والتصدير وتسهيل عمليات استبدال العملات.

هـ - **وجود حكومة لها صفة الزعامة**، أي أنها قادرة على اتخاذ القرارات الحاسمة ومعالجة القضايا الشائكة بسرعة وحزم. إن المستثمر الأجنبي لا يهتم بوجود حكومة ديموقراطية قدر اهتمامه بوجود حكومة قادرة على الالتزام بالقرارات التي تتخذها في شأن الاستثمار.

و - **من ملامح الوسط الجاذب الشفافيةُ والوضوح وتدفق المعلومات وسهولة الحصول عليها**، إن أكثر ما يمقته المستثمرون عامة والأجانب خاصة هو شعورهم بالجهل بحقيقة ما يحدث في البلد الذي يستثمرون فيه أموالهم. إن الثقة هي بنت الشفافية، وإن الأرقام الواضحة حول الديون الخارجية للبلد بالإضافة إلى وضوح النظم البنكية تشكل أساسًا في الشفافية المطلوبة.

ز - **من المهم جدًّا سهولة الحصول على تراخيص العمل والرخص الصناعية ووجود ضريبة دخل منخفضة على المستثمرين**، كأن تكون في حدود ( ١٠ - ١٥٪ )، كما أن من المهم أيضًا عدم وجود تضارب بين القوانين واللوائح المتعلقة بالاستثمار، وهذا أمر كثيرًا ما يشكو منه المستثمرون.

تحقيق ما أشرنا إليه ليس بالأمر السهل، ويمكن أن يتم تطبيقه بالتدرج، ولن يخلو من بعض القرارات الصعبة والمؤلمة، وقد يؤدي إلى بعض القلاقل العمالية والاجتماعية، ولكن البديل سيكون أسوأ.

إن الالتزام بما ذكرناه من إصلاحات لا يؤدي إلى إيجاد بيئة جاذبة للاستثمار فحسب، وإنما يؤدي كذلك إلى تحسين أوضاع البلد على نحو عام، وهذا مَلْحظ جدير بالعناية.

### اقتصاد يقوم على المعرفة:

لو عدنا قرنًا إلى الوراء لوجدنا أن معظم الإنتاج يقوم على ركائز تقليدية مثل الأرض والعمالة ورأس المال، ولكن بعد التقدم الهائل في البحث العلمي والصناعات الدقيقة المتقنة، وبعد تنظيم المعرفة وتسهيل سبل تداولها.. اختلف الأمر بل انقلب رأسًا على عقب، مع أنه يظل لرأس المال والعمالة والأرض والماء قيمة مقدرة، إلا أنه يُدفع بها باستمرار نحو الهامش لصالح الإبداع والتنظيم والمعرفة الفنية والقيادة والذكاء، ومن الواضح أن الذكاء البشري يتجسد اليوم في تقنية المعلومات وبرامج الحاسب

الآلي وسبل نشر المعرفة على أوسع نطاق، وعلى سبيل المثال، فإن الآثار التي تركتها شبكة ( الإنترنت ) في تواصل العالم ونقل المعارف والخبرات أكبر بكثير من أن يتم حصرها أو الحدس بها.

**ما المقصود باقتصاد المعرفة ؟**

لدينا العديد من الأسماء لمراد واحد، فكما نقول: اقتصاد المعرفة نقول أيضًا: مجتمع المعرفة ومجتمع المعلومات والاقتصاد الرقمي، والاقتصاد الجديد... وكل هذه الأسماء والمصطلحات تشير إلى الدور المتنامي لكل من المعارف الحديثة ورأس المال البشري في التقدم الاقتصادي ورفاهية الناس وازدهار الحياة العامة. العمال في اقتصاد المعرفة يستخدمون عقولهم وخبراتهم أكثر من استخدامهم لأيديهم، ويكون للبحث العلمي دور رائد في نجاح الشركات وتطوير المنتجات المختلفة، كما أنه يكون للاتصال وتنظيم الخدمات المالية دور أساسي في ذلك.

إن في إمكاننا القول: إن ملامح عصر المعلوماتية والاقتصاد الرقمي قد أخذت في الظهور على نحو واضح في الثلث الأخير من القرن العشرين، وقد كان لـ ( العولمة ) دور واضح في تعميم أدبيات هذا الاقتصاد.

**أهمية اقتصاد المعرفة:**

تقدر الأمم المتحدة أن اقتصادات المعرفة تستأثر بنحو ( ٧٪ ) من الناتج المحلي الإجمالي، وتنمو بمعدل ( ١٠٪ ) سنويًا، أي أكثر من ضعف متوسط نمو النواتج المحلية على مستوى العالم، وكلما كانت الدولة أكثر تقدمًا على الصعيد التقني كانت مساهمة المعرفة والمهارة الإنسانية أكبر، وعلى سبيل المثال فإن ( ٥٠٪ ) من نمو إنتاجية الاتحاد الأوروبي، هو نتيجة مباشرة لاستخدام وإنتاج تقنية المعلومات والاتصالات، والحقيقة أن أوروبا رائدة الاقتصاد المعرفي؛ حيث إن أكثر من ( ٤٠٪ ) من الوظائف المتاحة للموظفين هي على صلةٍ ما بالمعرفة.

إن علينا ألا نغفل شيئًا جوهريًا في الاقتصاد المعرفي، هو اعتماده على ما لدى الموظف والعامل من ذكاء ومهارة ومعرفة، مع قلة اعتماده على رأس المال؛ ولهذا فإن آفاق نموه واعدة، والتنافس فيه أقل من التنافس في الاقتصاد التقليدي، وهناك من الدراسات ما يشير إلى شغور نحو من ( ١٥٪ ) من الوظائف التي تتطلب مهارات عالية

في تقنية المعلومات، على حين أن وظائف الاقتصاد التقليدي مزدحمة بالمتنافسين عليها، وهذا المعطى مهم جدًا للعالم الإسلامي حيث الزيادة السكانية المرتفعة وحيث البطالة في أعلى مستوياتها.

**ركائز الاقتصاد المعرفي:**

**١ - تعليم متقدم وحديث:**

كما أشرت من قبل فإن النهوض بالتعليم يشكل البداية لكل نهضة. المطلوب من أجل إطلاق اقتصاد المعرفة التركيز على العلوم والرياضيات وعلوم الحاسب، ومطلوب أيضًا تدريب الطلاب على البحث وتصميم المشروعات الإبداعية..

والحقيقة أن التحدي الأكبر الذي يواجه المؤسسات التعليمية لدينا هو تحبيب القراءة واصطحاب الكتاب إلى طلابها؛ لأن اقتصاد المعرفة يتطلب موظفين لا يملون من الرجوع إلى مصادر المعرفة، ولا يتوقفون عن التدريب على التعامل مع النظم والمعطيات المعرفية الجديدة.

المال وحده لن يرتقي بالتعليم لدينا، بل لا بد معه من قيادات تمتلك من الرؤية والعزيمة ما يجعلها تستمر في مكافحة العادات التعليمية البالية التي ورثناها من عصور الانحطاط.

**٢ - تشجيع الابتكار:**

اقتصاد المعرفة يقوم على التكيف مع رغبات المستهلكين، مما يتطلب قدرًا كبيرًا من التنوع في المنتجات، ومن الواضح أن التنوع يقوم أساسًا على الإبداع والابتكار، وأظن أن المطلوب الجوهري في هذا الشأن هو توفير نظام فعال للربط بين الجامعات ومراكز البحث العلمي، وبين الشركات الصناعية عامة والعاملة في مجال تقنية المعلومات خاصة، حيث إن لدينا الكثير من المبدعين والمخترعين الذين لا يعرفون كيف يستفيدون من ابتكاراتهم، كما أن الشركات الصناعية لا تستطيع الصمود في السوق وكسب زبائن جدد من غير الاستمرار في تطوير منتجاتها، وهذا يتطلب من الحكومات رعاية العلاقة المشار إليها وتقنينها وترشيدها.

**٣ - توفير ظروف مساعدة:**

لا يمكن للاقتصاد المعرفي أن ينشط ويهيمن على الناتج المحلي من غير مساعدة

الحكومات، وفي هذا الإطار، فإن من المهم توفير ظروف تحفز على اعتماد المعرفة في الإنتاج والنمو الاقتصادي، وهناك في الحقيقة الكثير من الوسائل؛ منها: توفير وسائل اتصالات فعالة ورخيصة التكلفة، ومنها الإعفاء الجمركي لكل ما يتصل بتقنية المعلومات من أجهزة ومواد ونظم... وذلك من أجل زيادة القدرة التنافسية لاقتصاديات المعرفة.

**٤ - إيجاد تشريعات وقوانين تُلزم الشركات بزيادة الإنفاق على التدريب في مجال تقنية المعلومات، وقيام الحكومة بتوفير التدريب المجاني للقيادات الدنيا والمتوسطة، وتشجيع الابتكار ورعاية المبدعين:**

إن كثيرًا من المواد آخذ في النفاد، كما أن مخزون المياه العذبة في العالم آخذ في الاضمحلال، ولدينا إلى جانب ذلك مشكلات بيئية لا حصر لها، وهذا كله يتطلب اقتصادًا جديدًا يقوم على الذكاء الإنساني وعلى مهارة الموظفين والعمال الجدد، وفي الاقتصاد المعرفي ما يلبي كل ذلك.

### التنمية المستدامة:

يدرك العالم على نحو متزايد بأن نموذج التنمية القائم على الحداثة واقتصاد السوق والمبهرج من قبل ( العولمة ) وآلياتها الجبارة.. ليس بالنموذج الصالح؛ وذلك لأنه يؤكد على استغلال الموارد بجشع غير متناهٍ مع إهمال شبه تام للعدالة الاجتماعية، ومع غفلة كاملة عن المسؤولية الأخلاقية تجاه البيئة والموارد غير المتجددة.

إن العالم يعاني اليوم من مشكلتين خطيرتين؛ تتمثل الأولى منهما في نفاد العديد من الموارد الكبرى خلال عقود قليلة، وتتمثل الثانية في التلوث الكبير الذي لحق بالهواء والتراب والماء، وبسبب الإحساس بهذه المخاطر ومخاطر أخرى قامت الأمم المتحدة بعقد مؤتمر القمة العالمي للتنمية المستدامة في ( جوهان سبرغ ) عام ( ٢٠٠٢م )، وقد حضر ذلك المؤتمر ( ٢٢٠٠٠ ) شخص من مختلف دول العالم، وخرج المؤتمرون بالكثير من التوصيات وبنحو ( ٣٠٠ ) مبادرة قدمتها جهات مختلفة بهدف تحقيق أهداف المؤتمر.

**ما التنمية المستدامة ؟**

هي نمط من التنمية يقوم على تحسين الاقتصاد في إطار تحقيق المزيد من العدالة الاجتماعية ودعم الأنظمة البيئية المختلفة.

إن من الواضح من خلال هذا التعريف أن التنمية المستدامة تقوم على ثلاثة عُمُد أساسية هي: ازدهار الاقتصاد، والارتقاء بالمجتمع والحياة العامة، ثم الحفاظ على البيئة، والعمل على جعلها قادرة على الاستمرار في العطاء مدة طويلة. إن علينا أن نقول: إن انهيار النظم البيئية واتساع دائرة البطالة والفقر والفوارق بين الطبقات الاجتماعية تشكل أزمة كبرى للبشرية عامة، وإن في إمكاننا أن نجعل من معالجتها مفتاحًا لتقدم إنساني شامل، بل يمكن أن أقول: إن معالجة تلك المشكلات لا تتم فعلًا من غير تنمية شاملة ومتكاملة، ولعلي أشير إلى أهم ركائز التنمية المستدامة عبر المفردات الآتية:

**١ - خفض الاستهلاك:**

كما أشرت من قبل فإن الاعتقاد بأن الدنيا هي الفرصة الوحيدة للتمتع يحفز الناس على زيادة الاستهلاك والعبِّ من الشهوات، كما أن ضآلة الأنشطة الروحية والأدبية والاجتماعية تدفع الناس إلى أن يحققوا ذواتهم عن طريق إنفاق المزيد من المال، والذي كثيرًا ما يكون على حساب الموارد وصحة البيئة. المطلوب تربية الأجيال الجديدة على فكرة جوهرية، هي أن الدنيا ليست سوى مرحلة عابرة، والعيش الحقيقي في الآخرة، بالإضافة إلى إثراء الحياة العامة بالأعمال التطوعية التي تجعل المرء يشعر بالثراء الروحي والغنى الشخصي من غير الحاجة إلى مزيد من المال أو الاستهلاك.

الجيل الجديد نشأ في النعمة؛ ولهذا فإنه لا يكترث لمخاطر هدر موارد الغذاء والماء والكهرباء...

ولا بد للمدارس من القيام بدور جوهري في التوعية بهذا الأمر.

**٢ - القضاء على الأمية:**

من الصعب أن يستجيب الأميون للتعليمات المتعلقة بحماية البيئة والحفاظ على الموارد والسلوك الاستهلاكي الرشيد والتعليمات المتعلقة بأساليب الزراعة الحديثة والقائمة على توفير المياه، ومن هنا فإن القضاء على الأمية مهم جدًّا في مسألة التنمية المستدامة.

**٣ - العدل بين الأجيال:**

التنمية المستدامة تهدف في الأساس إلى استغلال الموارد والحفاظ على البيئة

على نحو يمكِّن الأجيال القادمة من العيش على هذا الكوكب بأمان وسلام ورخاء، وهذا يتطلب أن نتعامل مع الأرض كما يتعامل عالِم كبير مع مكتبته، إنه ينتفع بها، ويثريها دائمًا بالجديد المفيد، وحين يموت يتركها وهي أشد اكتمالًا.

إنه ليس من العدل أن نستنزف خيرات الأرض ونلوث هواءها ومياهها وتربتها، ثم نتركها في حالة يُرْثَى لها لأولئك الذين كنا سببًا في وجودهم.

العدل بين الأجيال يقتضي وضع قوانين صارمة لكبح جماح أولئك الذين يتعاملون مع خيرات الأرض بقدر كبير من الشره وقدر قليل من المسؤولية. كما أن على المجتمع إنشاء مجموعات الضغط الاجتماعي التي تعمل في نفس الاتجاه.

### ٤ - التركيز على الطاقة المتجددة:

المقصود بالطاقة المتجددة تلك الطاقة التي يتجدد وجودها في الطبيعة على نحو تلقائي ( من غير تدخل البشر ) فهي غير قابلة للنضوب، والهدفُ من الاهتمام بها الاستغناء قدر الإمكان عن الطاقة الأحفورية لما لها من ضرر بالغ على البيئة من خلال انبعاث ثاني أكسيد الكربون. كما أن النفط وغيره من أنواع الطاقة الأحفورية آخذ في النضوب في الوقت الذي تتسع فيه حاجة البشرية إلى المزيد من الطاقة، تشمل الطاقة المتجددة الطاقة الشمسية، وطاقة الرياح والطاقة المائية وطاقة الحرارة الجوفية بالإضافة إلى الوقود الحيوي المستمد من الكائنات الحية: النبات والحيوان.

إن من المهم جدًّا إقامة مراكز البحوث التي تهتم باكتشاف المزيد من الطرق للاستفادة من مصادر الطاقة المتجددة من أجل الحفاظ على البيئة وتوفير حوافز جديدة ورخيصة للنمو الاقتصادي.

### ٥ - الاعتماد على المنتَج المحلي:

من الواضح أن ( العولمة ) غيّرت كثيرًا من اتجاهات الناس وأمزجتهم تجاه كثير من منتجاتهم المحلية، فالصين اليوم تُصنِّع كل شيء من الأدوات والأطعمة.. والأشربةُ الأمريكية غزت العالم، وتم هجر كثير من الأراضي الزراعية اعتمادًا على المستورد... وهذا كله قلّل من الفرص الوظيفية، وأنهك ميزان المدفوعات الوطني!.

المطلوب هو دعم الزراعة والمشروعات الصغيرة وتطوير المنتجات المحلية

المختلفة، والإبداع في استثمار المعطيات والخيرات المحلية والتصدير منها عوضًا عن الاستيراد.

إن من ركائز التنمية المستدامة الاعتماد على الإمكانات الذاتية وتطويرها وإدارتها على نحو جيد.

**٦ - مارس حريتك وادفع الثمن:**

العمل بهذا المبدأ يساعد على جعل الناس يتحملون مسؤولية سلوكهم تجاه الحفاظ على الموارد وحماية البيئة، إن الذي يستهلك الكثير من الماء والكثير من الكهرباء، والكثير من الوقود.. عليه أن يدفع ثمن الاستهلاك الزائد عن الحد الطبيعي لمتوسطي الناس، وإن المصانع التي تلوث البيئة يجب أن تدفع تكاليف تنظيفها، كما أن الفضلات والمخلفات والقمامة يجب أن يُنظم نقلها والتخلص منها، ويجب على المواطنين الامتثال للقوانين السارية في ذلك، وعلى المخالف تحمل المسؤولية عن فوضاه وعدم اهتمامه.

التسعيرات والضرائب التصاعدية، والجزاءات المالية يجب أن تكون ركيزة في حماية الموارد والبيئة.

الشعار الذي يحكم هذا الشأن هو: مارس حريتك، وادفع الثمن.

**٧ - تشجيع المشروعات الصغيرة:**

كثيرًا ما يتجلى الوضع المثالي للتنمية الاقتصادية في كونه حافزًا ومساعدًا على تحسين الحياة الاجتماعية، وهذا ما يمكن أن نلمسه في ( المشروعات الصغيرة ) حيث إن استقراء التراث المهني في بلادنا العربية يشير إلى أن العاملين في مشروع صغير كانوا ينظرون إلى أنفسهم على أنهم أشبه بعائلة متضامنة، بينها الكثير من العلاقات الاجتماعية، والشعور بالهمِّ المشترك، وهذا ما نفتقده تمامًا في الشركات الكبرى. الرأسمالية المتغولة لا تهتم بالفقير أو المشروعات التي تساعده، وإنما تهتم بتكديس الأرباح، وهذا يتحقق غالبًا في المشروعات العملاقة.

تتمثل أهمية المشروعات الصغيرة على نحو أساسي في الآتي:

١ - تولِّد الوظائف بدرجة كبيرة مع تكاليف قليلة نسبيًا.

٢ – تساعد على التخفيف من البطالة لأنها توفر عددًا كبيرًا من الوظائف بسبب ضعف الأتمتة فيها.

٣ – تساهم في تنويع الدخل وزيادته.

٤ – توسع رقعة الطبقة الوسطى؛ إذ تدفع بالكثير من الفقراء ليكونوا في الطبقة الوسطى أو الشريحة العليا من الطبقة الدنيا.

٥ – تدار بكفاءة وحرص، ويكون الفساد فيها محدودًا لأن صاحب المشروع هو الذي يقوم بإدارته.

٦ – تساعد على تقليص دور الحكومات في الاستثمار، وهذا جيد جدًّا.

لدينا اختلاف واسع في تعريف المشروعات الصغيرة والمتوسطة، والموضوع نسبي إلى حد بعيد، لكن من التعريفات المشهورة ما ذكره بعض الباحثين من أن المشروع المتوسط هو الذي يوفر أقل من ( ٥٠ ) فرصة عمل، وعلى هذا يمكن القول تجوزًا: إن المشروع الصغير هو الذي يوفر أقل من ( ١٥ ) فرصة عمل.

### عقبات وتحديات:

في العالم اليوم معارك صامتة وصاخبة تدور بين رجال الأعمال والشركات الكبرى حول الاستحواذ على حصة أكبر من السوق وحول فتح أسواق جديدة، وهذا يعني أن أصحاب المشروعات الصغيرة سيجدون أنفسهم في وضع صعب جدًّا بسبب محدودية إمكاناتهم في الحركة والتواصل والمنافسة...

من أهم العقبات التي تواجه المشروعات الصغيرة ( والمتوسطة نسبيًّا ) الآتي:

١ – معظم المشروعات الصغيرة تدار بطريقة تقليدية، مما يسبب الكثير من الهدر في الجهد والوقت.

٢ – ضعف جودة منتجاتها، وعدم مواكبتها للتطور الذي يطرأ على رغبات المستهلكين وحاجاتهم.

٣ – كثير من هذه المشروعات لا يستطيع الاستمرار في السوق بسبب عدم توفر الدراسات الكافية عند إنشائها وبسبب ضعف الخبرة التسويقية لدى القائمين عليها...

٤ – البنوك في العادة لا تتحمس للمشاركة في المشروعات الصغيرة ولا لإقراضها؛ لأنها في العادة لا تستطيع توفير الضمانات التي تفرضها البنوك.

## كيف ندعم المشروعات الصغيرة؟

إن تحفيز المشروعات الصغيرة يحتاج إلى جهود كبيرة من قبل الحكومة ومن قبل المؤسسات الخيرية ورجال الأعمال والعديد من الجهات الأخرى، ومن أهمها الآتي:

١ - **نحتاج في كل بلد إلى مؤسسة أو هيئة - هي موجودة في بعض البلدان فعلًا - تكون مهمتها رعاية المشروعات الصغيرة**، من خلال توعية الناس بأهميتها وطرق إنشائها وكيفية التغلب على المشكلات التي تواجهها...

٢ - **على الحكومة أن تساعد المشروعات الصغيرة والمتوسطة من خلال بعض التعاملات التمييزية**؛ وعلى سبيل المثال فإن الهند سنَّت منذ مدة بعيدة قوانين تفضيلية تمنح المؤسسات الصغيرة أفضلية الحصول على بعض العقود الحكومية، وهذا شيء مهم جدًّا لأن المؤسسات الكبرى تستحوذ في العادة على مجمل ساحات العمل.

٣ - **إنشاء مؤسسات تقدم ما يتطلبه إنشاء مشروع صغير ناجح من دراسات وخبرات وتدريب**، ويمكن للغرف التجارية والصناعية أن تسهم في هذا على نحو جيد.

٤ - **يمكن للحكومة أن تُلزم البنوك بتقديم قروض بلا فوائد للمشروعات الصغيرة**، وتقوم إلى جانب ذلك بضمان تلك القروض.

٥ - **في وسع الحكومات أيضًا أن تمنح درجة من الأفضلية لمنتجات المشروعات الصغيرة**؛ حيث إنها تعاني في كثير من الأحيان من المنافسة الشديدة ومن استيلاء الشركات الكبرى على الأسواق.

٦ - **لدى كثير من الناس فوائض مالية كبيرة**، لا يقومون بتوظيفها واستثمارها، وإن في إمكان أهل الخير إنشاء مؤسسات تضمن القروض التي يقدمها الأثرياء للمشروعات الصغيرة، وتعود أهمية هذه الفكرة لوجود نيات خيرة لدى الناس، ووجود إمكانات مالية كبيرة معطلة.

٧ - **وجود الفساد في حياة الأمم ليس طارئًا**، ولا مستغربًا، فما دام المعروض من المال والنفوذ والسلطة والشهرة دائمًا هو أقل من المطلوب، فإن لنا أن نتوقع من كثير من الناس أن يسعوا إلى الوصول إلى ما تتوق أنفسهم إليه بطرق مشروعة وطرق غير مشروعة، وهذا ما يحدث الآن. كلما تعقدت الحياة أكثر صارت المغريات بالوقوع

في الفساد أوفر، وصار كشف وقائعه أصعب، وذلك للعديد من الأسباب.

**٨ - تحجيم الفساد:**

**- ما الفساد؟**

الفساد بتعريف سريع هو إساءة استعمال السلطة أو الوظيفة العامة أو الخاصة من أجل الاستحواذ على شيء غير مشروع، وإن كثيرًا من الدراسات يتركز في بحث الفساد لدى الموظفين الحكوميين باعتبار أن معظم حالات الفساد تكون لديهم، وإلا فالفساد يكون لدى الموظفين الحكوميين وموظفي القطاع الخاص.

صور الفساد كثيرة؛ منها:

- توظيف غير الأكفاء بسبب الرشوة أو القرابة، أو على سبيل تبادل المنافع.
- دفع الرشوة والعمولة المباشرة إلى الموظفين في الحكومة والقطاع الخاص لتسهيل عقد الصفقات وتسهيل الإجراءات لرجال الأعمال والشركات الأجنبية.
- وضع اليد على المال العام وتحويله إلى ملكية خاصة.

**- ما أسباب الفساد ؟**

السبب الكلي والرئيس هو ما أشرت إليه قبل قليل من كون الإنسان لا يشبع من المال والجاه والسلطة والشهرة، لكن هناك إلى جانب هذا أحوال وأوضاع تسهل ذلك وتحفز عليه، وهي في الحقيقة كثيرة، لعل من أهمها:

١ - **غياب دولة المؤسسات وعدم توزيع السلطات بشكل مناسب،** وأخطر ما في ذلك هو عدم تمتع السلطة القضائية بالاستقلالية التامة حتى تتمكن من الفصل في دعاوى الفساد.

٢ - **شيوع الاستبداد وضعف الممارسة السياسية الشعبية والجهل والتخلف والحروب...**

٣ - **غموض النظم ونقص الشفافية وصعوبة الحصول على المعلومات،** أسبابٌ مهمة لشيوع الفساد.

هذه الأمور كلها تحفز على الفساد، وتسهل سبله، ولعالمنا الإسلامي حظ وافر منها.

وإذا رجعنا إلى التقارير الصادرة عن منظمة الشفافية العالمية في برلين، فإننا نجد أن أكثر من ( ٩٠٪ ) من دول العالم الإسلامي يحتاج إلى أن تعمل حكوماتها ومجتمعاتها على إصلاح نظمها المختلفة من أجل التقليل من الفساد المستشري في كل مكان، وهذا شيء يدعو إلى الشعور بالأسف والأسى!

**- مخاطر انتشار الفساد:**

١ - **يؤدي الفساد إلى وجود فوارق طبقية واسعة حيث تتآكل الطبقة الوسطى،** وينقسم المجتمع إلى قسمين: شريحة كبيرة من الفقراء والمعوزين، وشريحة صغيرة من الأثرياء المتخمين، وهذا يوجد خللًا أخلاقيًا واجتماعيًا واسع النطاق.

٢ - **يزيد الفساد من الإنفاقات الحكومية بسبب الكلفة العالية للمشروعات،** وقد يؤدي تفاقم الفساد إلى وجود حكومة فقيرة مثقلة بالأعباء وطبقة ثرية متنفذة تشتري الموظفين الحكوميين.

٣ - **يؤدي الفساد إلى تدني الجودة والكفاءة في البنى التحتية المختلفة،** وذلك بسبب الرشاوى التي تدفع للمراقبين الحكوميين.

٤ - **الفساد يحد من تدفق الاستثمارات الأجنبية، ويُحرم البلد بذلك من نقل التقنية والخبرات الإدارية، و من إتاحة فرص عمل كبيرة للأجيال الجديدة.**

٥ - **التهرب من الضرائب مظهر مهم من مظاهر الفساد،** حيث تُحرم الدولة من مورد أساسي من مواردها، وذلك بسبب الرشاوى التي تدفع لموظفي الضرائب.

إن الفساد باختصار هو مصدر للفقر والعنف والتخلف وتعطيل مسيرة التنمية والظلم الاجتماعي.

**- كيف نحجِّم الفساد؟**

مشكلة انتشار الفساد من أكثر المشكلات انتشارًا وتعقيدًا على مستوى العالم؛ إذ إن للفساد دولته العميقة ومؤسساته ورجالاته وثقافته وأدواته، ولهذا فإن طموحنا لا يتجه إلى القضاء عليه، وإنما إلى الحد منه، وقد صار لدينا تجارب عالمية رائدة في هذا الشأن، ويمكن أن نستفيد منها. ومن خلال النظر في تلك التجارب يمكن أن نقرر الآتي:

١ - **مكافحة الفساد تحتاج وقبل كل شيء إلى إرادة سياسية،** فالقائمون على الشأن

السياسي وحدهم هم الذين يستطيعون تشريع قوانين ونظم فعالة لمكافحة الفساد، وإيجاد إرادة ضبط إداري يتميز بالصرامة والمهنية، وما لم تتوفر هذه الإرادة، فإن كل كلامنا عن محاربة الفساد يصبح نوعًا من اللغو.

٢ - **دعونا نقول: إن جهود مكافحة الفساد لن تفلح إلا إذا كانت جزءًا من عمل إصلاحي واسع يتناول كل أجهزة الدولة**، من نحو اختيار الأكفاء أهل الأمانة والسيرة المالية النقية، ومن مثل إيجاد تشريعات تلزم الموظفين بتقديم ما لديهم من معلومات لمن يحتاج إليها من إعلاميين وباحثين وغيرهم، ومن نحو تشديد الرقابة الحكومية على الأداء الوظيفي وغير ذلك...

٣ - **زيادة أجور الموظفين شيء أساسي في مكافحة الفساد**؛ حيث إن عدم قيام المرتب بالحاجات الأساسية للموظف سوف يشعره بمشروعية الرشوة؛ إذ إنه أعطى وقته للدولة، ولم تعطه كفايته، وقد روي عنه ﷺ ما يشير إلى هذا: « **من ولي لنا عملًا، وليس له منزل، فليتخذ منزلًا، أو ليس له زوجة، فليتخذ زوجة، أو ليس له خادم، فليتخذ خادمًا أو ليس له دابة، فليتخذ دابة، ومن أصاب شيئًا سوى ذلك فهو غالّ** »⁽¹⁾.

٤ - **ينبغي أن تكون هيئة مكافحة الفساد مستقلة تمام الاستقلال**، ويتم تعيينها من قبل مجلس الشورى أو البرلمان، وعليها أن ترفع له تقارير دورية عن عملها، فهذا أفضل بكثير من أن تكون تابعة لرئيس الوزراء أو غيره.

٥ - **يجب سن قانون ( الذمة المالية )** حيث ينبغي على الوزراء وكبار الموظفين أن يفصحوا عن ذممهم المالية عند التعيين، وأن تتم مراقبة نمو ثرواتهم وممتلكاتهم بدقة.

٦ - **هناك إجراءات عديدة تقلل من فرص الفساد مثل التوسع فيما يسمى ( الحكومة الإلكترونية )** حيث تقل الحالات التي يصل فيها المال إلى أيدي الموظفين الحكوميين، ومثل تبسيط الإجراءات الإدارية والحد من الأوراق المطلوبة لإنجاز المعاملات، وتقصير مدد التقاضي في المحاكم؛ حيث ينبغي ألا تزيد على ستة أشهر، ويمكن أن تمدد في بعض الحالات الخاصة مرة واحدة.

لدى العالم اليوم تراكم ممتاز من الخبرة في مجال محاكمة الفساد، وتظل

---

(١) رواه ابن خزيمة وغيره.

الاستفادة منه مرهونة بالنوايا الحسنة والإرادة السياسية الصلبة.

إن الحديث عن الاقتصاد ذو شجون، ومهما توسعنا فيه، فيظل ما لم نتكلم فيه كثيرًا جدًّا.

* * *

## التقدم السياسي

لم ترتبك البشرية في شيء مثل ارتباكِها في إدارة شأنها السياسي على الرغم من ضخامة التجربة الإنسانية في هذا الحقل، ويبدو لي أن مصدر الارتباك يعود إلى أن العمل السياسي يقوم في الأساس على معالجة ملفات وقضايا شائكة.

إن الناس في كل مكان وزمان مجمعون على ضرورة وجود دولة تقوم على شؤون البلاد والعباد، وهذا الإجماع، مصدره هو أن هناك موارد نادرة تحتاج إلى سلطة تقوم على توزيعها، كما أن للناس رغبات وتطلعات ووجهات متنوعة ومتباينة، وهذه تحتاج إلى من يرشِّدها ويُوْجِد نوعًا من التسويات بينها، والدولة وحدها هي الجهة التي يمكنها القيام بذلك، وعلينا أن نضيف إلى هذا أن من مسؤوليات السياسة الراشدة توزيع القوة والسلطة الموجودة في الدولة والمجتمع على نحو يؤدي إلى تفادي الصراع والاضطراب الأهلي...

إن ما يمكن أن يقال في شأن التقدم السياسي كثير، ولهذا فسأقتصر على ما أعتقد أنه ملائم للأجواء التي أوجدها الربيع العربي، وذلك من خلال النقاط والملاحظات الآتية:

### ١ - الانقطاع الحضاري:

كانت أمة الإسلام على مدار قرون تعاني من انقطاع حضاري شامل حيث تم عزلها عن أصولها ومبادئها الكبرى في مختلف جوانب الحياة، وذلك الانقطاع كان واضحًا في المجال السياسي، حيث إن الأمة لم تكن قادرة على السيطرة على هذا المجال، ففشا فيها الاستبداد والظلم والعنف وأكل الحقوق، وغابت فيها المساءلة والمحاسبة، كما غاب شيء اسمه الثقافة السياسية والحقوقية. بعد هبوب رياح ( الربيع العربي ) حدثت يقظة جيدة على هذا الصعيد، لكن الطريق طويل وشاق، ومملوءة بالعثرات، ولكن ليس هناك طريق آخر.

### ٢ - حكمة التشريع:

اللَّه لطيف بعباده، ويتجلى لطفه فيما لا يحصى من الأحداث والأوضاع، ومنها مسألة النظام السياسي، ونحن نلاحظ أن المجال الذي لا يتأثر بتغير الزمان والمكان

جاء في الشريعة الغراء مفصلًا غاية التفصيل - كما هو الشأن في العبادات - وما يتأثر بتغير الزمان والمكان جاء في الشريعة مجملًا مع وجود مبادئ هادية وموجهة، على ما هو الحال في الشأن السياسي، وفي هذا حكمة بالغة؛ إذ إن قلة النصوص تستدعي قلة الأحكام والتفاصيل، وهذا يعني بالضرورة ترك المجال للاجتهاد والبحث عن المصلحة في إطار المبادئ الهادية.

حثتنا النصوص الهادية في مجال اختيار الحكومة وممارسة السياسة على إقامة العدل ومحاربة الفساد والبغي والطغيان، والعمل على حفظ أمن البلاد والدفاع عنها إلى جانب العمل على حفظ حقوق الناس وتحقيق الأمن والاستقرار. وعلى الحاكم المسلم التعفف عن المال العام واختيار الأكفاء الأمناء لمساعدته، كما أن الأمة هي صاحبة الحق في اختيار الحاكم، وهي مصدر السلطة التي يستخدمها، ولها تجريده منها متى شاءت... الجميل في هذا الموضوع هو ترك الأساليب والوسائل في العمل بهذه المبادئ للأمة وللحكومة؛ لأنها تختلف من زمان إلى زمان ومن مكان إلى مكان آخر، وهذا يعني إتاحة فرصة كبيرة للتطوير والاقتباس من تجارب الأمم بما يحقق روح المبادئ المشار إليها، ويجعل الحكومة أقرب إلى الصلاح.

إن من المهم ألا نتوقف عند الأسماء: ( خلافة، دولة إسلامية، دولة مدنية بمرجعية إسلامية.. ) فلكل عصر ما يلائمه. إن الذي يستحق التوقف هو شكل الدولة الذي تتجسد فيه التوجيهات الربانية الكريمة، ويحقق الأهداف المنوطة بالحكومة وأجهزتها المختلفة.

### ٣ - لا لتضخم الحكومة:

لو تأملنا في كتابات العلماء المسلمين القدامى - ومنهم ابن خلدون - لوجدنا أنهم لا يحبذون قيام الدولة الشمولية التي تقوم بإدارة كل المرافق، وتقديم كل الخدمات، وتتدخل في كل شيء، ونحن نلمس هذا عمليًّا في إدارة نبينا ﷺ وإدارة الخلفاء الراشدين من بعده للدولة وللشأن العام.

إن الدولة - حسب رؤية أسلافنا - تقوم بما يعجز عنه الناس، إنها تضع السياسات والخطط العامة، وتوجه القوى الإنتاجية في مساقات تخدم العباد والبلاد، كما أنها تراقب الوضع العام، وتساعد الناس على أن يكونوا أقرب إلى الصلاح وأكفأ في أداء

أعمالهم، كما أنها تفصل في النزاعات، وتأخذ على يد المجرمين، وتحمي البلد من العدوان الخارجي... إن الدولة مثل أي عضو من أعضاء الإنسان، فساده في تضخمه، وقد أصاب من قال: ( المجتمع وليد فضائلنا والدولة وليدة عيوبنا ). إن توسيع صلاحيات أي حكومة وإعطاءها الفرصة للتمدد في الحياة العامة لن يحل المشكلات السائدة، بل سيجعل الأمور أسوأ حالًا.

الدولة المحدودة تعثر على القياديين والموظفين الجيدين بسهولة، كما أنها تستطيع متابعتهم ومراقبة أدائهم بيسر، والأهم من هذا هو إتاحة الفرصة لمؤسسات المجتمع المدني ومؤسسات القطاع ( اللاربحي ) كي تقوم بدورها على الوجه الصحيح. إذن التقدم السياسي لا يقوم على زيادة الموظفين الحكوميين، وإنما على تقليصهم قدر الإمكان، وهذا مشاهد بوضوح اليوم في كل العالم: الدول الأكثر تقدمًا لديها أعداد أقل من الموظفين، و الدول الأكثر تخلفًا تعج بالموظفين من كل الدرجات وفي كل المجالات، ومع كثرتهم ينتشر الفساد المالي والإداري في كل اتجاه.

### ٤ - تغيير ما في النفوس والعقول:

من الصعب حدوث تحسن على صعيد الدولة إذا لم يواكبه تحسن على صعيد المجتمع؛ وذلك لأن موظفي الدولة على مختلف تدرجهم الوظيفي هم من أبناء المجتمع، كما أن المجتمع هو الذي سيمارس الرقابة على الدولة عبر العديد من الأدوات، لا شك أننا لا نطمع في أن يصبح كل الناس وفق ما نريد وما هو مطلوب، لكن يجب أن تكون لدينا كتلة شعبية لا تقل عن ( ١٥٪ ) من المواطنين تحمل الأفكار والقيم التي تساعد على ترسيخ حكم رشيد وأصيل وفاعل.

إن مشكلة الاستبداد مع مشكلتي الفقر والجهل هي أقسى ما واجهه المسلمون عبر التاريخ، وإذا أردنا الحصول على حكومات صالحة وقوية تمارس الشورى، وتخضع للمساءلة، فلا بد من العمل على قلع جذور الاستبداد من العقول والنفوس أولًا.

يعلمنا القرآن الكريم أن ممارسة الشورى لا تكون في مجال الحكم فقط، وإنما في شأننا كله حيث يقول سبحانه: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [ الشورى: ٣٨ ]. فالشورى حتى تصبح تقليدًا في السياسة يجب أن تصبح من تقاليدنا في التربية وتعاملنا في البيوت وفي التعليم والممارسة الإدارية في المدارس والجامعات، كما أنه ينبغي أن تكون

كذلك في المسجد والمصنع والسوق.. الحياة الشورية تعني أن نُخضع كل ما هو مشترك للتداول والنقاش حتى نستولد وحدة الرأي والموقف، فإن عجزنا خضعنا لرأي الأكثرية وفق أدبيات وآليات وضوابط تحفظ حقوق الأقلية، وتحافظ على التماسك الاجتماعي.

من هنا نقول: إن طريق التقدم السياسي طويل وشاق.

### ٥ - البداية المشجعة:

حين يُذكر العالم الثالث فإنه يُذكر معه الحروب الأهلية والسيارات المفخخة وتدمير البنى التحتية كما يُذكر التحايل والخداع والقهر السياسي. وهذا ليس نابعًا من طبيعة الناس ولا من الأديان والعقائد السائدة، ولكن نابع من تراكمات تاريخية سيئة ولَّدها الجهل والتخلف والفقر، ولو قرأت في كتاب مثل تاريخ الطبري أو البداية والنهاية أو أي كتاب آخر لوجدت أن الملاحم والحروب والفتن والثورات هي أكثر ما كان يشغل المؤرخين، ونحن هنا لا نتكلم بالطبع عن الجهاد وفتوح البلدان.

**نحن اليوم في حاجة إلى أن نرسخ في أعرافنا السياسية والاجتماعية أمرين جوهريين:**

**الأول**: ألا نسمح لأنفسنا باستخدام العنف والسلاح من أجل تصفية خلافات سياسية مهما كان نوع تلك الخلافات، وهذا يتطلب منا أن نعلي من شأن حرمة الدماء، ويكفي في هذا ما قاله ﷻ: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [ المائدة: ٣٢ ].

**الثاني**: أن نتمكن من إجراء جميع ما نحتاجه من انتخابات دون أن يتهم بعضنا بعضًا بالغش والتزوير، وهذه نقطة في غاية الأهمية لأن الناس بعد المفاهيم التي زرعها الربيع العربي في عقولهم لن يقبلوا بالكثير من الأشياء ما لم تكن وفق إرادتهم واختيارهم، والحقيقة أن في الانتخابات على نحو عام معنى الشورى، والتي تمثل ركنًا ركينًا من أركان أي حكم صالح، بل يمكن القول: إن مجتمعًا يسكنه مئة مليون قد لا يجد وسيلة يعبر فيها عن نفسه غير وسيلة الاحتكام إلى صناديق الاقتراع.

نحن نريد أن يكون لدينا من الاحتياطات الأخلاقية والإجرائية ما يجعل

اللجوء إلى تزوير الانتخابات أمرًا غير وارد، وهذا ممكن جدًّا وفي فترة قصيرة إذا خلصت النوايا.

### ٦ - الدولة وتغيير المجتمع:

لا شك في أن كل مسلم ملتزم يجد نفسه متشوقًا لرؤية مجتمعه وقد التزم بأحكام الشريعة الغراء وآدابها في شأنه كله، وهذا جزء من فطرة الإنسان؛ حيث إنك قد لا ترى من يحب أن يعيش الناس وفق ما لا يراه ويعتقده ويمجده على مستوى الأفكار والأخلاق والسلوكيات..

**والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو:**

هل من الصواب استخدام نفوذ الدولة وسلطتها والمقدرات التي بين يديها من أجل حمل الناس على عقائد أو أخلاقيات معينة أو أن ذلك غير ملائم أو غير مفيد؟

**الجواب على هذا السؤال هو الآتي:**

١ - الدولة مطالبة بالعمل على كل ما هو خير للناس في أمور دينهم ودنياهم، والمهم دائمًا هو الأداة التي تستخدمها في ذلك. الدولة الصالحة تعمد إلى توفير البيئات والأجواء التي تساعد مواطنيها على أن يكونوا مواطنين صالحين منتجين سعداء، وهذا القدر من تدخل الدولة متفق عليه فيما أعتقد، وهو ما تقوم به كل الحكومات الجيدة.

٢ - القاعدة العامة في دور الدولة في تغيير عقائد الناس وأفكارهم وأخلاقهم...

هي: ( كلما كان تدخل الدولة أقل كان أفضل ) وذلك لأن حضور سلطة الدولة ليس بالشيء المحبوب، والناس يفسرونه على أنه نوع من القهر والاستبداد واستغلال السلطة لتحقيق أهداف وغايات خاصة.

إن أساس الحياة الفاضلة هو الإيمان الراسخ، وهو يقوم على القناعة والشعور بالمسؤولية، وهذا لا يتم بسياط القهر، وفي أجواء المنع والحظر والخوف، والنصوص في هذا كثيرة وصريحة؛ منها قوله سبحانه: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ ﴾ [ البقرة: ٢٥٦ ]. وقوله: ﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ [ يونس: ٩٩ ]. وقوله: ﴿ فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ (٢١) لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ﴾ [ الغاشية: ٢١، ٢٢ ].

٣ - واهمٌ من يظن أن تطبيق الشريعة منوط على نحو رئيس بالحكومات، فالحقيقة الناصعة هي أن أكثر من ( ٩٠٪ ) من القيام بأمر اللَّه تعالى منوط بالناس وليس بموظفي الدولة، وهذا أمر واضح، وشرحه يطول. أما إقامة الحدود وكثير من القرارات المتعلقة بالشأن العام؛ مثل الجهاد والعلاقات الدولية والسياسات العامة، فهذا لا شك من واجب الدولة، وعليها القيام به على أحسن وجه في إطار تقديرها للمصالح والمفاسد.

تعلمنا من تجربتنا التاريخية الثرية ومن تجارب الربيع العربي وتجارب أخرى عديدة أن أسلمة المجتمع وهدايته وحمله على الخير والرشاد يجب أن تتم بنعومة وسلاسة وعلى سبيل التدرج، وينبغي أن يصحب ذلك نوع من الازدهار الاقتصادي، وإلا فإن النتائج قد تكون مخيبة للآمال، وقد نحصل على مجتمع ظاهره التدين وباطنه الفسوق والانحراف.

الأشخاص الأحرار المختارون هم الذين يستطيعون حمل أمانة الرسالة، وتجسيد الدين في حياتهم على نحو جيد، أما المكرَهون والمقهورون، فهؤلاء يتعرضون إلى تشويه عميق في شخصياتهم، ويكون أداؤهم عند الحد الأدنى. التربية والدعوة والإعلام والتعليم وإيجاد المناخات الملائمة للصلاح، هي الأدوات الرئيسية في تغيير قناعات الناس وتهذيب سلوكياتهم، وينبغي أن نركز على استخدامها في كل الأوقات.

٤ - لا تستطيع المؤسسات الإسلامية - والدينية عامة - فرض رؤيتها على المجتمع، واستخدام سلطة الدولة في تغيير اتجاهاته ورغباته دون أن ينالها قسط من العداء الذي يضمره المجتمع ضد أي دولة، وهذا واضح جدًّا في بعض مجتمعات الربيع العربي وغيرها. إن نشر قيم الإسلام والإيمان يقوم أساسًا على الإقناع وعلى الجاذبية، وهكذا انتشر الإسلام في المجتمعات الإسلامية وفي العالم، وأعتقد أن استخدام السياسة في هذا الشأن لن يكون في مصلحة الدين، ولا لمصلحة المتدينين.

### ٧ - الشرعية الهشَّة:

لدينا في السياسة كما في غيرها قاعدة ذهبية تقول: ( إذا لم يعجبك خيار أو حل ما فانظر إلى البديل، فإن كان أسوأ من المتاح، فعليك الرضا بما هو متاح ) هذا هو

حالنا مع ما أنتجه البشر من نظم لإدارة شؤون الحياة، نظم ناقصة، وعاجزة عن إرضاء جميع الناس أو سدِّ جميع احتياجاتهم، وهذا هو حالنا مع ( الديموقراطية ) والاحتكام إلى صناديق الاقتراع.

مر على الأمة قرون متطاولة من تهميش الجماهير، وقد أخذ الحال في التغير، حيث انفتحت شهية الناس اليوم على الانتخابات - ربما للتعويض عما سبق - فلا يقبلون بشيء إلا عن تشاور بينهم ورأي منهم، لكن علينا أن نقول: إن صناديق الاقتراع تمنح شرعية هشة في الأوضاع الانتقالية بسبب عدم ارتكازها على الأعراف والتقاليد الصحيحة، وتمنع من التعامل مع مغتصبي القرار الشعبي أو مختطفي البلد من أهله، ولهذا فلا ينبغي التعويل على نتائج الانتخابات كثيرًا، والحرص في المقابل على التوافق وتوزيع السلطة والمناصب على جميع الفُرقاء.

وبعض الأحزاب لم يتنبهوا إلى هذا المعنى، ولهذا تصرفوا تصرفات مليئة بالعجلة والاطمئنان إلى تفويض الجماهير، وهذا ليس بالشيء الحميد.

الشورى والاحتكام إلى رأي الجمهور والاعتداد بنتائج صناديق الاقتراع أمور ما زالت في طور التأسيس في مجتمعاتنا، وسنحتاج إلى وقت ليس بالقصير حتى نصير إلى الاستقرار السياسي المنشود، وخلال هذه المدة علينا أن نصبر ونتعامل مع بعضنا بالتسامح المشوب بالحذر.

### ٨ - صلاح النُّظم هو الأهم:

لا شك في أن لصلاح من يلي المسؤوليات الكبرى والصغرى أهمية كبرى؛ لأن في النظم والقوانين الكثير من الفجوات التي تتيح للمسؤول أن يتصرف وفق قناعته ومسؤولياته. المسؤول الخلوق الذي يخاف اللّٰه تعالى والحريص على مصالح العباد والمسؤول الكفء الجدير بالثقة ذو الخبرة والقدرة على العطاء.. هو المطلوب على نحو عام، وهو ما عبرت عنه ابنة شعيب حين قالت: ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾ [ القصص: ٢٦ ].

لكن التجربة العالمية دلت على أن صلاح النظام أهم من صلاح من ينفذه، فجودة آليات اتخاذ القرار وتوزيع السلطات والفصل بينها يحد من الطغيان والفساد أكثر بكثير من صلاح الأشخاص القائمين على تطبيق النظام، وأعتقد أن كثيرًا ممن كتبوا في السياسة

الشرعية في الماضي لم ينتبهوا لهذه النقطة، أو أنهم لم يتمكنوا من كتابة ما أدركوه بسبب أجواء العسف والقهر التي سادت كثيرًا من البلاد الإسلامية في أزمنة متطاولة.

الشركات الكبرى هي الأخرى تعول اليوم على صلاح النظم الإدارية والمالية في تعظيم أرباحها واستقامة أمورها، وهذا ما نحتاج إليه على نحو عاجل وملحّ.

### ٩ - مواطنون في درجة واحدة:

نحن في عصر جديد تفتح فيه وعي الإنسان على حقوقه وواجباته على نحو غير مسبوق. إذا أراد المرء أن يكون منصفًا لخصومه، فعليه أن يضع نفسه مكانهم، ويحاول الشعور بشعورهم، وإن من الواضح أن من حق أي إنسان أن يعيش حرًّا كريمًا في أرض آبائه وأجداده؛ لأنه إذا لم يتمكن من ذلك في أرضه، فأين يمكنه التمتع به؟!

المواطنة عبارة عن عقد بين الدولة والمواطن، تقوم الدولة بمقتضاه بحقوق المواطن، ويقوم المواطن بأداء واجباته. عماد دولة المواطنة هو العدل بين المواطنين، فلا يتم تقديم مواطن على آخر لاعتبارات تتعلق بالعقيدة أو المذهب أو النسب أو الإقليم...

السؤال الذي يطرح نفسه هو: هل هناك استثناءات لهذا المبدأ أو لا؟

الجواب: نعم هناك استثناءات، فالفقهاء المتقدمون لا يرون أن يكون غير مسلم في منصب الولاية العامة، كما أنهم لا يرون ذلك للمرأة إلى جانب استثناءات فرعية أخرى. بعض هذه الاستثناءات موجود في بعض الدساتير الغربية، حيث ينص العديد منها على أن الملك أو الرئيس ينبغي أن يكون من أتباع مذهب معين أو كنيسة محددة بسبب أن أغلبية المواطنين تنتمي إلى ذلك المذهب أو تلك الكنيسة.

إلى جانب النص الدستوري هناك العرف الاجتماعي الصارم؛ إذ إن المجتمع لا يسمح بكل ما يسمح به الدستور أو القانون، ففي تاريخ أمريكا - مثلًا - لم يحدث أن تولى رئاسة الدولة شخص يهودي، أو امرأة؛ لأن العرف لا يسمح بذلك رغم سماح الدستور.

**أنا هنا لا أريد أن أناقش هذا الموضوع، ولكن أريد أن أشير إلى أمرين:**

**الأول:** هو أن بعض الأمور تحتاج إلى نظرة جديدة، وعلى سبيل المثال فإن مما يمكن أن يقال: إن منصب الولاية العظمى كان في الماضي يعني منصب

( الخلافة ) للمسلمين جميعًا، وهذا غير موجود الآن؛ ولهذا فإن الملوك ورؤساء الدول هم بمثابة حكام ولايات، كما أن مسمى المناصب قد اختلف، فمنصب ( الرئيس ) مثلًا في النظام البرلماني هو منصب فخري، والذي يحكم فعلًا هو رئيس الوزراء، فهل يكون تعليق الحكم على الشكل أو على المضمون؟

**الثاني**: لا أعتقد أن عدم تولي امرأة أو عدم تولي ( مسيحي ) للولاية العامة هو الذي يثير المشكلات، وإنما الذي يثيرها هو ما ليس منصوصًا عليه، ففي بلدان كثيرة يتم توزيع المناصب على أهل الحظوة والولاء أو الأثرياء أو أبناء أقاليم بعينها، وكثير من المناصب لا ينظر فيه إلى الجدارة والتأهيل والكفاءة مما يؤدي إلى الكثير من القصور في الأداء وإضاعة المال واحتجاج المهمشين.

حتى تحصل دولة ما على ولاء المواطن وتفانيه في خدمة بلاده، فلا بد لها من إشعاره بأنه يعامل كإنسان وكمواطن من الدرجة الأولى، وإلا فإن عليها أن تكون مستعدة لقلاقل وفتن لا تتوقف.

### ١٠ - المزيد من المساءلة:

المرتبات التي يتقاضاها كل المسؤولين والموظفين لدى الدولة هي في الحقيقة من المال العام للشعب، وهم يستحقونها من خلال العقود المبرمة بينهم وبين ممثلي الشعب في التوظيف، ومن هنا كان من حق الناس التأكد من أن الموظفين يقومون بواجباتهم على أحسن وجه، ومن أنهم يتصرفون بالمقدرات والإمكانات المالية كما ينبغي، والتأكد كذلك من أنهم لا يسيئون استخدام السلطة الممنوحة لهم.

نبينا ﷺ هو الذي أسس لمساءلة الولاة والموظفين حين قال له ابن اللتبية: هذا لكم وهذا لي، فقام على المنبر، وقال: « **ما بال العامل نبعثه فيأتي يقول: هذا لك وهذا لي، فهلا جلس في بيت أبيه وأمه أيهدى إليه أم لا..** »⁽¹⁾. وعمر رضي الله عنه استحدث مبدأ: « من أين لك هذا؟ ». وعُرف عن علي رضي الله عنه محاسبة الولاة والتركيز على حقوق العامة وحقوق الأفراد.

**وهذه بعض الملاحظات حول هذه المسألة المهمة:**

**١ - أسَّس الكتاب العزيز لمبدأ يعد غاية في الأهمية،** وهو أنه لا ينبغي أن يكون

---

(١) أخرجه أبو داود وغيره.

في المجتمع الإسلامي شخص لا يُسأل عما يفعل؛ لأن في ذلك خطورة بالغة على الاستقامة والنزاهة الإدارية والمالية، وجاء تأسيس القرآن الكريم لهذا المبدأ عبر عتاب اللَّه تعالى لنبيه ﷺ على بعض اجتهاداته أو بعض ما بدر منه، وقد بلَّغ ذلك الصادق المصدوق والأمين المؤتمن، وقد ذكر بعض المفسرين أن مواضع العتاب قد بلغت اثني عشر موضعًا؛ منها قوله سبحانه: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴾ [ عبس: ١، ٢ ]. وقوله: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ [ التوبة: ٤٣ ]، وقوله: ﴿ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾ [ الأحزاب: ٣٧ ].

إن شعور الناس على اختلاف وظائفهم ومناصبهم بأنهم مسؤولون عما تحت أيديهم وأعمالهم، يُعلي من درجة حرصهم على الصواب والنزاهة والاستقامة، وقد قال اللَّه تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ [ العلق: ٦، ٧ ] وهذه تجربة موجودة في طول العالم وعرضه.

**٢ - تعني المساءلة تمكين المواطنين وذوي العلاقة من الأفراد والمنظمات غير الحكومية**، من مراقبة ومحاسبة الموظفين الحكوميين والمسؤولين عمومًا من خلال القنوات والأدوات الملائمة دون أن يؤدي ذلك إلى تعطيل العمل أو الإساءة إليه من غير سند أو دليل ظاهر.

من الواضح أنه لا بد أن يكون لدى كل حكومة جهاز للرقابة والتفتيش، ولا بد للجهاز من أن يتسم بالنزاهة والفاعلية، لكن هذا لن يكون كافيًا لحفز الموظفين والمسؤولين الحكوميين على أداء واجباتهم وحسن التصرف فيما تحت أيديهم، ولا بد إلى جانبه من قوانين تسهل الوصول إلى المعلومات، كأن يتم نشر تقارير اجتماعات المجالس واللجان العليا على نحو منتظم، وكأن تكون كل جهة مستعدة لإرسال ما يطلبه المواطنون من معلومات إلى عناوينهم البريدية، ولدينا شيء ثالث قد يكون هو الأهم، وهو إعطاء مساحة واسعة للإعلام والتحقيقات الصحفية، فالناس تخاف من الفضيحة والقيل والقال، وحجم النزاهة وحسن الأداء مرتبطان إلى حد بعيد بحجم الحرية الإعلامية المتاحة. الرقابة الإعلامية ليست مساءلة، لكنها تشكل الطريق الأوسع لمحاسبة الكثير والكثير من الموظفين.

٣ - **نوعية تنظيم الجهات الرقابية مهمة جدًّا في فاعليتها وأداء عملها**، وعلى سبيل المثال، فإن في إمكان الجهاز الرقابي التواصل مع كبار الموظفين من أجل وضع معايير للأداء الجيد وتقديم النصح لهم في دعم التغيير والإصلاح الجاري في دوائرهم وأعمالهم، والأهم من هذا استقلالية القضاء الرقابي عن السلطة التنفيذية، وفي هذا السياق، فقد وجدت بعض الدول أن من الأفضل أن تكون تبعية جهاز الرقابة والتفتيش للمجلس التشريعي أو البرلمان، وبعض الدول تجعل ذلك لمجلس القضاء الأعلى... والمهم أيضًا أن يتلقى ذلك الجهاز الدعم الكافي من الجهات العليا كي يتمكن من النجاح في معاركه مع الفاسدين والمفسدين.

### ١١ - مركزية أقل:

مهما بلغ الناس من السمو، ومهما تحسَّن مستواهم الثقافي والحقوقي، فإنهم يظلون تواقين إلى توسيع نفوذهم في الشأن العام، وتواقين إلى خدمة مصالحهم الخاصة، وفي العالم القديم والمعاصر تجارب كثيرة تشير إلى أن تركيز السلطات في يد أعداد قليلة أو لدى الحكومة المركزية غالبًا ما يكون بوابة للفساد المالي والإداري، بالإضافة إلى أنه يوجد جوًّا من الإهمال واللامبالاة لدى سكان الأطراف بسبب شعورهم بالتهميش وضآلة دورهم في خدمة قضاياهم المحلية، ومن هنا كان دفع النظم الإدارية في اتجاه ( اللامركزية ) سبيلًا من سبل الإصلاح والتطوير.

لا شك في أن السيرورة نحو ( اللامركزية ) تشكل في بعض الأحيان خطورة على وحدة البلد وتماسكه؛ ولهذا فإن القيام بهذا الأمر يتطلب شرطين أساسيين:

**الأول**: قوة القلب الذي هو عاصمة الدولة، وامتلاكها للمقومات المالية والعسكرية المتفوقة على ما يملكه أي طرف من أطراف البلاد.

**الثاني**: وجود قدر جيد من الاستقرار والهدوء والتفاهم بين مكونات البلد المختلفة.

إذا لم يتوفر هذان الشرطان فإن منح المزيد من السلطات للأقاليم ربما يؤدي إلى تشظي البلد وانقسام الدولة الواحدة إلى عدد من الدول.

قد اخترع العقل البشري فكرة ( الفيدرالية ) لتكون بديلًا عن التقسيم؛ ولهذا فإنها قد تؤدي إلى شكل من أشكاله إذا لم يتم التعامل معها بحذر وعناية تامة.

إن تخفيف المركزية في إدارة الشأن العام يزيد من كفاءة الأجهزة الإدارية، ويشجع الناس على الانخراط في العمل التطوعي من أجل قضاياهم المحلية، كما أنه يجعل إمكانات الفساد أقل، ولدينا أمر آخر لا يقل أهمية عما أشرت إليه، وهو سهولة إضفاء الصبغة الإسلامية على المجتمع وتطبيق أحكام الشريعة في البلاد التي فيها تنوع عرقي وديني ومذهبي..

### ١٢ - السياسة ورحابة الاجتهاد:

ميدان السياسة ميدان مفتوح على المتغيرات المحلية والإقليمية والدولية؛ ولهذا فإنه يظل معتركًا للآراء والاجتهادات المتباينة، كما أن أنظمة الحكم تحاول تأطير ما يصعب تأطيره من رغبات الناس وتطلعاتهم وحاجاتهم ومذاهبهم..

أضف إلى هذا أن العمل السياسي نفسه يقوم على تقدير المصالح وتحقيق أكبر قدر منها، وتقدير المفاسد وتقليلها إلى الحد الأدنى، كما أن القائمين على شؤون البلاد يتعرضون لضغوط داخلية وخارجية تجعلهم يتصرفون على غير ما تريده الجماهير العريضة، أو ترى أنه في مصلحتها. هذا كله حرم سياسات كثير من الدول من الفوز بإجماع الناس.

نحن نعرف - كما قدمنا - أن الشورى تشكل عماد أي حكم إسلامي، والشورى نفسها تعني ضرب الآراء ببعضها من أجل الوصول إلى الرأي السديد، وبالتالي فهناك من لا يؤخذ برأيه، وهناك من يشعر أن البلاد تسير في الاتجاه الخاطئ، وهناك من يشعر بالظلم.. هذا كله جعل وجود معارضين لأي حكم أمرًا لا مفر منه.

وهذه بعض الأفكار في هذه المسألة المهمة:

أ - **هناك من يقول: إن وجود الأحزاب يؤدي إلى تشتيت الأمة وتمزيق المجتمع؛ ولهذا فإنهم لا يرون أي تنظيم للمعارضة، ويؤيدهم في هذا وجود عدد كبير من الأحزاب الفاسدة في كثير من الدول،** لكن علينا أن نقول أيضًا: إن الخلاف في المجتمع قائم وموجود في كل الأحوال، وحين يتم إنشاء حزب أو أحزاب معلنة ومعترف بها، فهذا قد يقي المجتمع شرور التنظيمات السرية التي تشكل مرتعًا خصبًا للعنف والإرهاب والانحراف الفكري والعقدي.

ب - **الخلاف المذموم هو الذي يؤدي إلى التعصب الأعمى وهضم الآخرين**

**حقوقهم**، لكن الخلاف الناتج عن تقليب الرأي من أجل الوصول إلى ما هو أفضل وأنفع هو خلاف ممدوح، وقد يؤجر عليه أصحابه؛ لأنه نوع من الاجتهاد، وقد اختلف بعض الصحابة مع الخلفاء الراشدين في بعض الأمور، ولم ينقص ذلك من قدرهم.

ج - **مسوغ وجود معارضة سياسية هو مراجعة أعمال كبار الموظفين ونقدها**، إلى جانب القيام بدور الوسيط بين الجمهور ومن بأيديهم السلطة، كما أن المعارضة توجد نوعًا من التوازن بين القوى الاجتماعية المختلفة، فلا يطغى بعضها على بعض.

د - **المعارضة الصحية هي التي تشجع إنجازات الحكومة، وتثني على مواقفها الجيدة**، كما أنها لا تعمد إلى تضخيم السلبيات من أجل مكاسب انتخابية، وإنما تقوم لله تعالى بالقسط والعدل، وهذا في البلدان المتخلفة ما زال - مع الأسف - محدودًا، ولكن مع الأيام تتحسن الأحوال.

هـ - **من الواجب الشرعي والأخلاقي على كل من في السلطة والمعارضة العمل يدًا بيد عند اتخاذ القرارات المهمة**؛ لأن الأهداف الاستراتيجية وكل ما له علاقة بحياة الناس والمصالح العليا للبلاد.. يشكل أهدافًا مشتركة وإن اختلفت الرؤى حول الأساليب والأدوات.

و - **المعارضة مكملة للسلطة الزمنية القائمة**، وهي بمثابة الطرف المحاور الذي لا يكون هناك حوار سياسي واجتماعي من دونه، وعليها حتى تقوم بدورها على نحو إيجابي أن تتوخى أعلى درجات الحذر واليقظة والإخلاص والوعي، حتى لا تقع في أخطاء فادحة تضر بالمصالح العامة للبلد، وحتى لا يصبح كل همها هو الوصول إلى السلطة، وليس الإصلاح.

* * *
* *
*

# خَاتِمَـة

**الحمد للّه الذي بنعمته تتم الصالحات، وبعد:**

فإن مسألة النهضة بحر لا ساحل له، ومهما عالجنا من موضوعاتها، فإننا سنجد أن هناك ما هو جدير بالعلاج والبحث والاهتمام، ولكن ميلي إلى الالتزام بالاختصار وحرصي على بقاء ما أكتبه هنا في إطار التقديم لموضوعات طويلة جعلني لا أسهب في الحديث عن كثير من القضايا، كما جعلني أُعرض عن الكتابة في موضوعات مهمة مثل الدعوة والإصلاح الديني، كما جعلني أدمج قضايا رئيسية في بعضها، كما فعلت حين تحدثت عن ( الهوية ) في إطار الحديث عن التربية، و حين دمجت الحديث عن العلم والمعرفة في الحديث عن التربية والتعليم..

إن الأمة تمر بمرحلة فيها الكثير من التحولات الإيجابية، وهي ماضية في طريق النهضة بعزيمة وثبات، وثقتي باللّه تعالى كبيرة بأن يساعدنا على نفض غبار التخلف على نحو نهائي، وما ذلك على اللّه بعزيز.

إنني قد بذلت جهدي في سبيل كسر المعادلة الصعبة: بساطة الأسلوب مع سمو المعنى وعمق الطرح، وآمل أن أكون قد وفقت في ذلك.

شيء آخر حاولت الابتعاد عنه هو عدم تكرار الأفكار خلال معالجة القضايا المختلفة، ولكنني لم أستطع ذلك على نحو كامل، فهناك قضايا محورية - كالتعليم مثلًا - يضطر الباحث إلى الإشارة إليه في المجال التربوي والاقتصادي والاجتماعي، ومثله موضوعات مهمة؛ مثل البيئة والمسؤولية الأخلاقية..

أخيرًا أود أن أقول: إني أنظر إلى هذا الكتاب على أنه - على نحوٍ ما - مكمل لكتابي ( ثقافة النهضة ) ومع أن الفصل بين الثقافة والحضارة يشبه الفصل بين الروح والجسد، أو بين حروف الكلمة ومعناها، إلا أنني حاولت أن أركز في الكتاب الأول على ما هو من قبيل القيم والسلوكيات، وحاولت هنا التركيز على ما هو من قبيل الإجراءات والأساليب والأدوات المساعدة على النهوض بالأمة.

وإني إذ أحمد ربي على ما أعانني عليه ويسره لي من إنجاز هذا العمل لأسأله

- جل شأنه - أن يتقبله بقبول حسن، وأن ينفع به إخواني القراء، إنه سميع مجيب.

**والحمد للّٰه رب العالمين.**

أ.د. عَبْدالكَرِيم بَكّار

## ثبت الأفكار والمقولات العامة

- صحيح أن رؤية ابن خلدون للإصلاح كانت غائمة أو غائبة، لكن من الصحيح أيضًا أن الرجل وضع أصبعه على كثير من العلل التي أدت إلى انهيار الحضارة الإسلامية.

- أسلوب الحياة في الغرب يكسب كل يوم أرضًا جديدة على صعيد الإنجاز والنجاح، وعلى صعيد المتعة وأسلوب العيش.

- توسع كل جوانب الحياة يعني سيلًا من التفاصيل الغامرة، وهذا يعني من وجه آخر أن ما ورثناه من أسلافنا سيصبح عبارة عن مبادئ وأفكار عامة.

- كثير من التفريعات والجزئيات التي كانت مفيدة في الماضي فقدت الحياة اليوم بسبب عدم ملاءمتها للواقع.

- النهضة عبارة عن كتاب كبير، وعلى كل مواطن أن يخط صفحة من صفحاته أو سطرًا من سطوره.

- ضعفنا هو سبب تسلط الآخرين، وليس تسلط الآخرين علينا هو سبب ضعفنا.

- حين يهيمن التخلف، يتراجع التساؤل، وتكثر الأجوبة الجاهزة التي لم تبن على علم أو فهم.

- سيطرتنا على الواقع تظل نسبية، وفهمنا له يظل منقوصًا.

- كل طروحاتنا النهضوية تظل اجتهادية ومظنونة النتائج، والخذلان قد يأتي من التصور أو من قصور في التطبيق.

- لا بد لنا من أن ننظر إلى التنمية بمنظار غير منظار الغرب؛ إذ إن لنا أولوياتنا الخاصة، كما أن مشكلاتنا مختلفة عن مشكلات الغربيين.

- الحضارة كيان هش أو مشروع تحت الإنجاز؛ ولهذا فإن على الناس الاستمرار في بذل الجهد من أجل الحفاظ على ما تحقق من تقدم.

- نحن مغرمون بالتداول الشفوي للأفكار، مع أن للكتابة فائدة عظيمة هي تنظيم الفكر، وجعل رؤانا الإصلاحية أفضل انسجامًا.

- دور الفكر في النهضة أشبه بدور الأساس في البناء، إن أساس البناء شيء لا بد منه، لكنه لا يقي من حرٍّ ولا قرٍّ.

- الواقع المعقد يحتاج إلى رؤية معقدة للتعامل معه.

- كل الرؤى والحلول الإنسانية نسبية النضج والكمال.

- حلول مشكلاتنا ليست كامنة في التراث، ولا هي عند غرب أو شرق.

- التغيرات السريعة التي يمر بها العالم جعلت مدة صلاحية أي إنجاز أقصر بكثير من السابق.

- حين نختلف في تعريف أي شيء، فإننا نكون قد وقفنا عند مفترق طرق، وسيكون لكل مِنَّا وجهته.

- كان الناس يعتقدون أن الانكفاء على الذات هو أفضل وسيلة للحفاظ على الهوية، واليوم نعتقد أن الانفتاح المتحفظ والمشاركة والتبادل هي الوسيلة الأفضل لذلك.

- التنافس يكون صحيًّا إذا أفضى إلى التعاون.

- حتى ينجح ما نسنُّه من قوانين فإنه يحتاج إلى نوع من التوافق مع المجتمع وقناعاته.

- الغربيون فقراء في الغايات والأهداف النهائية على مقدار غناهم بأساليب ووسائل الحضارة.

- النهضة التي لا تستهدف الارتقاء بالإنسان هي نهضة ضد الإنسان.

- عالم العلاقات هو المصدر الرئيسي لكثرة الأسباب المؤثرة في وجود أي ظاهرة من الظواهر.

- لا يكفي أن تعدد الأسباب الكامنة وراء ظاهرة من الظواهر، بل لا بد من وضع اليد على أكثرها جوهرية وفاعلية.

- لا نهضة من غير نقد جاد للذات التاريخية والحاضرة.

- النقد يخلصنا من أثقال الأفكار الميتة التي كانت في يوم من الأيام ذات جدوى.

- حين نندمج في الواقع تهجع أرواحنا، وتميل عقولنا إلى الركود.

- الوعي الجديد مدين للانفتاح على الواقع وتراكم الخبرة والنقد المتواصل للواقع.

- لا بد من أن تكون لنا وضعية سياسية وأخلاقية وحقوقية تجعل إراقة دم المسلم شيئًا لا يمكن التفكير فيه.

- المبادرات الصغيرة أسلوب مناسب لمعالجة كثير من المشكلات الكبيرة.

- عصرنا هذا هو عصر الذكاء والقيادة والمبادرة والاتصال والإدارة الحديثة.

- عالم اليوم هو عالم الصراع والتنافس المكشوف من غير أي رحمة أو أخذ لأي اعتبار.

- كلما حدثت أزمة اكتشفنا أن المرتبة الأولى في الولاء لدى معظم الناس محجوزة للقبيلة والأسرة والعائلة الممتدة!

- النهضة عمل صامت منظم وشامل.

- نجاعة كل المعالجات السياسية والاجتماعية والاقتصادية تفتقر إلى شيء واحد هو الأخلاق.

- الإنسان قادر على التكيف مع أصعب البيئات، لكن ذلك التكيف يكفي لبقاء الإنسان حيًّا ليس أكثر.

- البحبوحة الاقتصادية تحتاج إلى ترجمة إلى مكاسب ثقافية وروحية، وإلا فقد تنقلب إلى نقمة.

- من الواضح أن تأثر الناس بمجتمعاتهم أكبر من أن نعبر عنه بالكلمات.

- الحداثة جعلت الناس أكثر وعيًا بمصالحهم الخاصة.

- تمكنت العولمة وأخطاء فاحشة وقع فيها بعضهم من إضعاف الحس الوطني وإذكاء نزعات الانفصال في العديد من البلدان.

- المجتمع المزدهر هو مجتمع يوفر لأبنائه مستوى جيدًا من التعليم، كما يوفر فرص عمل جيدة للشباب.

- من المؤسف أن المجتمع كلما تحضر أكثر ضعفت العلاقات الحميمة بين أفراده!

- التماسك الاجتماعي هو تماسك ثقافي في المقام الأول.

- تتخذ الدول الحديثة من ( الضرائب ) وسيلة للتقريب بين الطبقات وتحقيق عدالة اجتماعية أفضل.

- حين تعاني الصفوة من عين المشكلات التي يعاني منها الناس، فهذا يعني أن البلد يسير في طريق مسدود.

- التفاوت بين وعي الفرد ووعي المجتمع هو مصدر التجديد الذي تشهده الحياة الاجتماعية.

- يحارب المجتمع كل الأشخاص الذين يمكن أن يكسروا اتساقه الداخلي، ويشوشوا اتجاهه العام.

- قدر الرواد أن يغردوا خارج السرب من أجل مصلحة المجتمع.

- لو رجعنا إلى التاريخ لوجدنا أن كثيرًا من المبادرات الصغيرة تحولت إلى أعمال عملاقة نفع اللّٰه بها الملايين من عباده.

- الطبقة الوسطى تخفف من حدة الصراع الطبقي؛ لأنها تشكل قاسمًا مشتركًا بين كثير من المواطنين.

- التنوع نعمة، وحتى يظل كذلك، فإن علينا أن نتدرب على جعل خلافاتنا تتوقف عند حدود معينة.

- مأسسة المجتمع تقوم على فلسفة تقول: ( حكومة أصغر ومجتمع أكبر ).

- الإيمان بأهمية العمل الجماعي مرتبط بدرجة التحضر التي يحرزها المجتمع.

- فطر اللّٰه خلقه على الحرص على التمايز والسعي إلى الاستقلال.

- تعلمنا التجربة الحضارية أن كل شيء ينشأ تحت الضغط ينال حظه من التشويه.

- التربية هي الوسيلة الناعمة لتطوير أشد الثقافات تحجرًا.

- السيطرة الاجتماعية على الأفراد في تراجع مستمر بسبب التواصل العالمي وسكنى عدد كبير من الناس في المدن الكبرى.

- التدين الحقيقي يتطلب البحث عن المغزى والقيمة في كل علاقتنا ومواقفنا

الاجتماعية والتخفيف قدر الإمكان من الشكليات والمظهريات.

- الحقيقة أن التقدم الاجتماعي كان يقوم دائمًا على التقدم في التربية والتعليم.

- يصعب تحقيق قفزة نوعية في مجمل المجالات الحضارية من غير قفزة نوعية بأوضاع مدارسنا وجامعاتنا.

- التفوق اليوم يتطلب من الشاب الاستعداد لتقبل عدم الاستقرار والاستعداد للترحال الدائم.

- السبيل الوحيد لإبقاء عقولنا في حالة من التوهج يكمن في إنتاج المزيد من الأفكار الجديدة.

- اللغة تصنع المشاعر وحتى تكون أرواحنا ندية بالصلة باللَّه تعالى فيجب أن تظل ألسنتنا ندية بذكره.

- الانضباط الذاتي لا يعني حرمان النفس من كل مرغوباتها، لكنه يعني الاستجابة للتحديات على نحو يجعل الواحد منا قدوة وكفؤًا وعلى قدر المسؤولية.

- أفضل الناس تنظيمًا هم أفضلهم في الاستفادة من أوقاتهم.

- ليس المهم أن نطرح الأسئلة الذكية فحسب، بل لا بد معها من التفاعل مع أجوبتها وتطوير السلوك في ضوئها.

- من أفضل ما يمنحنا إياه التخطيط هو التدرب على حشد ما لدينا من موارد مشتتة ومتنوعة.

- من شأن الشروع في العمل استدراج فرص وإمكانات لم تكن موجودة أو مرئية قبل الانطلاق.

- الربيع العربي يقدم أدلة ملموسة على إمكانية حدوث تقدم أخلاقي وقانوني في وقت قياسي.

- التعليم الرديء يفسد الخلق، ويجعل الطموحات منخفضة، أي أنه يؤسس للفشل والانحسار.

- يجب أن تجد فضائلنا الشخصية في الإحسان إلى الناس أفضل تجسيد لها.

- الجهل بكل أشكاله ومستوياته هو العدو الأول للإسلام والمسلمين.

- حتى نؤهل أبناءنا للعمل في أي مكان من الأرض، فينبغي أن تكون لدينا جامعات جيدة بالمقاييس العالمية.

- إن أسوأ ما يمكن أن يقع هو قبول من هبَّ ودبَّ في مهنة التعليم بذريعة ضغط الحاجة والضرورة.

- أكثر ما يدخل منه الضيم على الفقراء هو الصحة والتعليم.

- المشكلة الأساسية تتمثل في وجود آلاف الطلاب النابهين الذين لا يستطيع أهلوهم مساعدتهم على تكميل تعليمهم.

- ليس المهم أن تملك المال، لكن المهم أن تملك القدرة على إنفاقه في وجوه الخير.

- توفير تعليم جيد لغير القادرين عليه يعد أفضل ما يمكن تقديمه للعناصر الضعيفة في المجتمع.

- نقطة الضعف الأساسية في التعليم الأهلي أنه قائم على نظام التجارة، والذي لا يملك بطبعه ما يكفي من الحساسية الوطنية للقيام بما يجب عليه القيام به.

- التربية عملية صياغة كاملة للفرد حيث إنه من خلالها يستكمل إنسانيته، ويتأهل لأن يعيش بشرًا سويًّا.

- الغزو الثقافي تحول من التأثير في النخب إلى التأثير في كل أفراد الشعب.

- نحن لا نربي أطفالنا من أجل العيش في زماننا، وإنما من أجل العيش في زمان آخر، وهذا يتطلب منا نوعًا من تجاوز الذات.

- حين تتحول الفكرة إلى شعور، فهذا يعني أنها صارت جزءًا من البنية النفسية للإنسان.

- المستقبل سيكون بإذن اللَّه لأولئك الذين يطرحون الأفكار الجديدة، ويملكون القدرة على حل المشكلات التي يعاني منها الناس.

- يمكن للاهتمام بالمستقبل أن يحفزنا على تطوير كل أساليبنا التعليمية والتربوية.

- لم يكن المال هامشيًّا في حياة الناس في أي مرحلة من مراحل التاريخ.

- لدينا مشكلة في ثقافة التعامل مع المال؛ حيث يعتقد كثير من المسلمين أن المال مالهم، ولهم الحق في التصرف به على النحو الذي يرونه.

- لا يكمن الازدهار الاقتصادي في وفرة المال، وإنما في الارتقاء بنوعية الحياة.

- خيرات الأرض وكنوزها ليست ملكًا لجيلنا، وإنما هي ملك لكل الأجيال القادمة.

- لا تعط الأولاد أقل مما يحتاجون إليه ولا أكثر حتى لا تفسدهم.

- كثير من الصفات الرديئة لدينا ليست جزءًا من طبيعتنا، وإنما اكتسبناها بسبب العيش في بيئة معينة.

- الكسالى والفوضويون والمهملون هم دائمًا جزء من المشكلة.

- الجهل والفقر والاستبداد ثلاثة أمراض خطيرة عانت منها الأمة في قرون متطاولة من تاريخها.

- حركة الأثرياء اللصوص لا تكون إلا على حساب الفقراء والمهمَّشين.

- يمكن أن نجعل من القضاء على الفقر محورًا لاستقطاب الكثير من السياسات الاستراتيجية وتوليد كثير من القيم السامية.

- معظم الدول الآن تسعى إلى جذب الاستثمارات الأجنبية من أجل توفير المزيد من فرص العمل لأبنائها، وهي مستعدة لتحمل الآثار السلبية التي تترتب على ذلك.

- المستثمرون الأجانب لا يدخلون بلدًا غير مستقر، وهم كثيرًا ما يبحثون عن بلد تقوده حكومة لها صفة الزعامة، أي قادرة على اتخاذ القرارات الحاسمة.

- الثقة هي بنت الشفافية، وإن أكثر ما يمقته أرباب رؤوس الأموال هو الجهل بما يجري في البلد الذي يستثمرون فيه أموالهم.

- من الواضح أن الذكاء البشري يتجسد اليوم في تقنية المعلومات وبرامج الحاسب الآلي وسبل نشر المعرفة على أوسع نطاق.

- العمال في اقتصاد المعرفة يستخدمون عقولهم أكثر من استخدامهم لأيديهم.

- سنة ماضية من سنن اللَّه تعالى في الخلق: المزيد من التفكير يعني القليل من الجهد العضلي والعكس صحيح.

- اقتصاد المعرفة يعتمد على ذكاء الموظفين ومهاراتهم ومعارفهم أكثر من اعتماده على رأس المال، وهذا يمنح الفقراء فرصًا جديدة للعمل.

- التحدي الأكبر الذي يواجه مؤسساتنا التعليمية هو تحبيب القراءة والكتابة إلى أبنائنا.

- لن يكون المال وحده كافيًا للارتقاء بالتعليم، بل لا بد من وجود قيادات تملك من العزيمة ما يجعلها تستمر في مكافحة العادات التعليمية البالية التي ورثناها من عصور الانحطاط.

- التنوع في المنتجات سببه النشاط المحموم في الإبداع والاختراع.

- لا تكون التنمية قابلة للديمومة ما لم تعمل على تحقيق المزيد من العدالة الاجتماعية، وما لم تتمتع بمسؤولية أخلاقية عالية تجاه البيئة والموارد غير المتجددة.

- الإلحاد والغفلة عن الآخرة يشجعان على الانغماس في الشهوات وتبديد الموارد المتاحة.

- الأمية عاهة مزمنة تعاني منها الشعوب النامية، وإن مشكلة الأمي أنه لا يستطيع التفاعل مع الأفكار وأساليب التنمية الحديثة.

- ليس من العدل أن نستنزف خيرات الأرض ونلوث ماءها وهواءها وترابها، ثم نورثها لمن كنا السبب في وجودهم!

- على من يستهلك أكثر أن يدفع ثمن إسرافه وتماديه في استهلاك الموارد، على مبدأ: ( مارس حريتك، وادفع الثمن ).

- دعم المشروعات الصغيرة ينطوي على بعد أخلاقي مهم، هوَ مد يد العون للضعيف، ومساعدته على الصمود.

- يدل ما لا يحصى من الدلائل على أن ضعف المبادرة والتنظيم والتواصل لدى الصفوة هو أهم ما يعيقهم عن الدور الذي يجب أن يقوموا به في قيادة الأمة.

- وجود الفساد المالي لدى الأمم ليس طارئًا ولا مستغربًا ما دام المعروض من المال والنفوذ والشهرة هو دائمًا أقل من المطلوب.

- كلما تعقدت الحياة أكثر صارت المغريات بالوقوع في الفساد أوفر.

- الفساد باختصار: هو إساءة استعمال السلطة أو الوظيفة العامة أو الخاصة من أجل الاستحواذ على شيء غير مشروع.

- الفساد هو العدو الأول للطبقة الوسطى، وللفقراء أيضًا.

- للفساد دولته العميقة ومؤسساته ورجالاته وأدواته؛ ولهذا فإن مكافحته تحتاج إلى صبر واستمرارية.

- إن جهود مكافحة الفساد لن تفلح ما لم تكن جزءًا من عمل إصلاحي كبير وجذري.

- لدى العالم اليوم تراكم ممتاز من الخبرة في مجال ملاحقة الفساد، وتظل الاستفادة منه مرهونة بالنوايا الحسنة والإرادة السياسية الصلبة.

- لم ترتبك الأمم في شيءٍ ارتباكَها في إدارة الشأن السياسي لكثير من الملفات الشائكة والمعقدة.

- من مهام أي دولة توزيع القوة والسلطة المتوفرة على نحو يؤدي إلى تفادي الصراع والاضطراب الأهلي.

- عانت أمتنا قرونًا من انقطاع حضاري شبه شامل عن كثير من أصولها ومبادئها الكبرى.

- قلة النصوص في مجال السياسة تتيح الفرصة لكثير من الاجتهادات والموازنات السياسية.

- حين تقل النصوص في أي مجال يبرز دور المقاصد والغايات ويتراجع دور الأشكال والهياكل.

- إن الدولة حسب رؤية أسلافنا تقوم بما يعجز عنه الناس.

- ينطبق على الحكومات وموظفيها الحكمة القائلة: ( كلما كان أصغر كان أجمل ).

- من الصعب حدوث تقدم على صعيد الدولة إذا لم يواكبه تحسن على صعيد المجتمع.

- قلع جذور الاستبداد من النفوس والعقول هو الأساس لإزالته من الحياة العامة.

- الشورى بوصفها أسلوب حياة تعني أن نُخْضِعَ كل ما هو مشترك للتداول والنقاش حتى نستولد وحدة الرأي والموقف.

- حين نخضع لرأي الأكثرية، فلا بد من تذكر حقوق الأقلية مع الحرص على التماسك الاجتماعي.

- معظم ما نعانيه في المجال السياسي ليس متصلًا بطبائعنا، وإنما بسبب تراكمات تاريخية قاسية، ولَّدها الجهل والتخلف.

- مهما اختلفنا، فيجب ألا نفترق. وإذا افترقنا، فلا يجوز أبدًا أن نسوغ لأنفسنا أن نقتتل.

- إذا استطعنا إجراء انتخابات دون أن يتهم أحد أحدًا منَّا بالتزوير، فهذا تقدم سياسي ممتاز.

- المطلوب من الحكومات الراشدة توفير البيئات التي تساعد الناس على أن يكونوا أقرب إلى الصلاح.

- سَنُّ القوانين في تغيير أسلوب حياة الناس من غير إقناع هو عمل عقيم.

- أكثر من ( ٩٠٪ ) من القيام بأمر اللَّه تعالى منوط بالناس وليس بالحكومات.

- حين تعمد حكومة مسلمة إلى أسلمة مجتمعها، فإن عليها أن تتبع أساليب ناعمة مع تحقيق ازدهار اقتصادي واضح.

- إذا لم يعجبك حل أو خيار، فانظر إلى البديل، فإن كان أسوأ من المتاح فعليك الرضا بما هو متاح.

- في الأوضاع الانتقالية تكون الشرعية التي تمنحها الصناديق هشة وغير مضمونة.

- تدل التجربة العالمية في السياسة على أن صلاح النظام أهم من صلاح من يقوم على تنفيذه.

- إذا أراد المرء أن يكون منصفًا مع خصومه فليتخيل نفسه في وضعيتهم، وليحاول الشعور بمشاعرهم.

- إذا لم يظفر الإنسان بعيش كريم، ولم يتمتع بحقوقه على أرض آبائه وأجداده، فأين يمكن أن يحصل على ذلك؟!

- حتى تحصل دولة ما على ولاء مواطن، وترى منه تفانيًا في مساندتها، فإن عليها أن تشعره أنه مواطن من الدرجة الأولى.

- مع كل مستوى من الحرية يولد مستوى جديد من الشعور بالمسؤولية.

- أسس القرآن الكريم لمعنى عظيم جدًّا، هو أنه لا يصح أن يكون في أي مجتمع إسلامي شخص أو فئة فوق المساءلة.

- كلما كانت مساحات الحركة أمام وسائل الإعلام أوسع ضاقت مساحات الحركة أمام المفسدين.

- اخترع الوعي البشري نظام الحكم الفيدرالي من أجل تفادي شرور الانقسام والتشظي.

- تطبيق الشريعة في ظلال حكم أقل مركزية أسهل من تطبيقها في ظل نظام مركزي.

- كل تصرفات الحكومات قابلة للتأويل والقراءات المتعددة؛ لهذا كان وجود بعض المعارضين أمرًا لا مفر منه.

* * *

## مراجع مختارة

- أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث، د. فهمي الجدعان، عمان، دار الشروق، ط. ثالثة، عام ( ١٩٨٨م ).

- إشكاليات الفرد والمجتمع في العصر الحديث، تأليف أميتاي إنزيوني، ترجمة ندى السيد، بيروت، دار الساقي، ط. أولى، عام ( ٢٠٠٥م ).

- الأمة وأزمة الثقافة والتنمية: أوراق ندوة عقدت في القاهرة، نشر: دار السلام، ط. أولى، عام ( ٢٠٠٨م ).

- بناء مجتمع من المواطنين: المجتمع المدني في القرن الحادي والعشرين، تحرير دون إي. إيبرلي، ترجمة هشام عبد الله، الأردن، الأهلية للنشر والتوزيع، ط أولى، عام ( ٢٠٠٣م ).

- تعميق الانتماء الوطني.. كيف ؟ نبيل زكي ( مقال على الإنترنت ).

- الثقافة والمجتمع، د. سمير إبراهيم حسن، دمشق، دار الفكر، ط. أولى، عام ( ٢٠٠٨م ).

- حول التربية والتعليم، د. عبد الكريم بكار، دمشق، دار القلم، ط. ثانية ( ٢٠٠٥م ).

- فلسفة الحضارة، تأليف ألبرت اشفيتسر، ترجمة د. عبد الرحمن بدوي، دار الأندلس ( ١٩٩٧م ).

- كيف يستطيع صناع السياسة جذب الاستثمارات الأجنبية ؟ حوار مع برايان جريغز (حوار على النت).

- مدخل إلى التنمية المتكاملة، د. عبد الكريم بكار، دمشق، دار القلم، ط. ثانية، عام ( ٢٠٠٥م ).

- مستقبل الإسلام، بقلم أحميدة النيفر، دمشق، دار الفكر، ط أولى، عام ( ٢٠٠٤م ).

- المنهج وعلاقته بالتغير الاجتماعي. علياء يحيى العسالي ( مقال على الإنترنت ).

- النهضة من الصحوة إلى اليقظة، د. جاسم سلطان، دار الهدى للنشر والتوزيع.

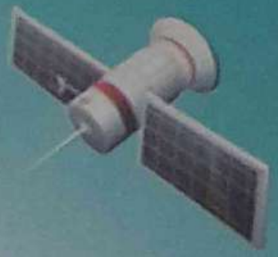

## هَذا الكِتابُ

يتحدَّث عما يمكن تسميته (متن) الرؤية النهضوية مُعرضًا عن الخوض في كثير من التفاصيل؛ لأن المسلمين موزَّعون على كلِّ قارات الأرض وبلاد الدنيا، وزمام الأمور في كثير من البلاد ليس في أيديهم، كما أن بينهم الكثير من التباينات الثقافية والحضارية، وهذا يجعل الخوض في الجزئيات غير ذي معنى، بل إنه قد يضر أكثر مما ينفع. وهذا العمل لا يهدف إلى وضع خطوط عريضة وشاملة لنهضة مرتقبة ومأمولة، فذلك أكبر من أن يتصدَّى له كاتب أو خمسة من الكُتَّاب، ولكن الهدف هو إنارة بعض النقاط المظلمة ولفت الانتباه إلى أمور مهمة في مساعينا نحو التحضُّر. والله الهادي إلى سواء السبيل.

Dar-Alsalam Designs

**Introduction To Renaissance Project**

by Professor 'Abdul Karim Bakkar | Islamic Studies

**الناشر**

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

القاهرة - مصر - ١٢٠ شارع الأزهر - ص.ب ١٦١ الغورية
هاتف، ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ - ٢٥٩٣٢٨٢٠ - ٢٤٠٥٤٦٤٢
فاكس، ٢٢٧٤١٧٥٠ (+٢٠٢)
الإسكندرية - هاتف، ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس، ٥٩٣٢٢٠٤ (+٢٠٣)
www.dar-alsalam.com info@dar-alsalam.com

ISBN: 978-977-717-174-8